لجنة الخبراء
يصدرها :
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

K

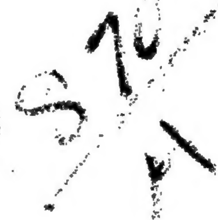
CHECKED

Checked
1987

محمد صلى الله عليه وسلم
وبنو إسرائيل

تأليف الدكتور
مصطفى كمال وصفي





الكتاب السابع
١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

مقدمة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« ونصرت بالرعب على مسيرة شهر »
(صحيح)

ناحية تتمثل فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وجهاده تحتاج الى الابراز والظهور ، تلك هى مجابهته للفتن الداخلية والعقبات التى اعترضت دولة الاسلام فى أول نشأتها وتكوينها .

فقد تداولت الأقلام الاسلامية خلق النبى صلى الله عليه وسلم من نواح عديدة وعرضت الرقة واللين والرأفة من حياته الكريمة الشريفة . وبينت كيف كان مع أزواجه وذوى قرباه وصحابته ولكنها لم تتعمق كثيرا فى حزمه وجلاله وقوته فى مجابهة أعدائه وكيف جال معهم جولات الشدة والسياسة حتى أقام أقوى دولة ظهرت فى التاريخ من العدم ، وحقق بها أسمى مراتب ما عرف من النجاح والكمال .

ولا شك أن سياسة الدولة الناشئة التى تقوم فى جو من الدسائس والتآمر والفتن والسلوك بها الى مرتبة الاستقرار ثم القوة والسيادة هى أرفع السياسات ولا يقوم بها الا أقدر الساسة وأقواهم ممن تتوفر فيهم أعلى الصفات الشخصية والقوة .

وفى التاريخ أمثلة عديدة من الساسة والقادة والرؤساء ممن نهضوا بجماعاتهم وبوءوها المكانة العالية وخلفوا من بعدهم تراثا تقدم بالانسانية ونهض بها ، ولكن ليس بينهم من حقق النجاح الكامل الشامل كمحمد صلى الله عليه وسلم وحاشا أن يقارن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحدهم وانما هو خطاب لأهل الدنيا بمقاييسهم .

فقـد تكاملت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل نواحى الـكمال . فكان آية فى الحكمة والكلام الجامع والمعرفة الحقة والعلم الصحيح . وكان نهاية فى الخلق العظيم والسلوك القويم . وغاية فى شئون السياسة والقيادة . والخطابة وعنوانا فى حسن المظهر وجمـال السمت وأناقة اللفظ والثـوب ورقة الشعور وكل ما يتزين به الرجل المهذب الأنيق فى أرقى المجتمعات .

وكل هذه العناصر المتباينـة اجتمعت لبدوى أمى يتيم نشـأ فى بيئة قاسية فى جوها وظروفها ليست على شأن اذا قورنت بحواضر ذلك الزمان . فهو لم ينشأ فى مدينة من حواضر العلم والثقافة والمدنية كالقسطنطينية أو انطاكيا أو الاسكندرية أو روما . ولم تكن مكة مهما قيـل فى أنهـا طريق القوافل والتجارة جديرة بأن تخرج هذا الكمال الانسانى فى أى وقت من الأوقات ولم يحضر على عالم مشـهور أو ينشـأ فى بلاط حاكم كبير حتى يتعلم المعرفة والحكمة والسياسة ولم تكن تلك البيئة الخشنة لتخرج تلك الرقة والدماثة والسمو .

وذلك برهان على أنه من الله وليس من نفسه أو بيئته .

* * *

وان اجتماع الرأفة الشديدة واللين والرحمة مع الحزم والشدة والقوة فى شخصه صلى الله عليه وسلم دليل كماله الانسانى . فالكمال فى التوسط بين النقائض وعلاج المواقف بما يناسبها .

ولقد أكثر قادحوه من القول ان النبى يكون روحانيا خالصا ولا يكون له نصيب من الدنيا . وهذا جهل أو تجـاهل . فالأنبيـاء بشر . والانسان المنصرف الى آخرته فقط التارك لدنيـاه أدنى ممن جمع الآخرة والدنيـا . وتفوق فى سبيلها . ولقد ضرب الله بالنبى صلى الله عليه وسلم مثلا بالانسان الكامل الجامع فى قوة روحانية وسمو معنوياته وفى درايته بالدنيا وخبرته فيها وتفوقه فى شئونها فان قارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقادة أو الساسة أو حتى أهل الذوق والجمال لفـاقهم ولو قارناه بذوى الرسالات والروحانيين لكان أفضلهم أجمعين .

ولقد أردت من عرض هذا الموضوع أن أضيف الى ما علم عنه صلى الله عليه وسلم فى نواحى الروح والمعنى ، صفحة عن خبرته فى شئون السياسة والدنيا .

بل أعرض فى هذه الصفحات فصولا فى السياسة تستحق أن تؤثر عنه وتسجل وتحلل ، ليستخلص منها ما يفيد الساسة والقادة فى علاج شئون البلاد .

وبخاصة فى ظرف نجتازه الآن والبلاد تخوض معارك الفتن ومؤامرات التحدى فى الداخل والخارج وتسلك سبيلا هو الى النصر ان شاء الله والى خير ما يرضاه الله .

ولقد تبين لى من الرجوع الى المراجع غير الاسلامية أن المحايدين من المؤرخين قد وضعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قمة رجال السياسة ، ذلك بأنهم حكموا على أعماله من نتائجها وحللوا أسباب تصرفاته على ضوء ما تبين لهم الآن وما اتضح من معالمها بعد زمانها . ومن ذلك ما جاء فى دائرة معارف الاسلام فى مواضع عديدة تنقل منها حكمهم على معاهدته مع أهل المدينة من أنها أظهرت مواهبه السياسية الكبرى

it reveals his great diplomatic gifts for it allows the ideal which be chrished of an umma.

وتأثر الكثيرون من مؤرخى الاسلام الحديثين بذلك فحللوا تصرفاتهم على ضوء الدوافع السياسية والنتائج التى حققها .

أما المؤرخون العرب القدامى فقد وقفوا عند حد العرض والتسليم لكونه صلى الله عليه وسلم معصوما من أفعاله التشريعية يصدر فيها عن الوحى ، وقليلون تنبهوا الى مقتضيات السياسة والظروف فيما فعل . أما رأيى فى ذلك فهو أنه كان صلى الله عليه وسلم يتصرف بلا شك بهدى من الوحى وان نجاحه كان بتوفيق من الله وليس لنا علم بحقيقة دوافعه وتحليل أفكاره ما لم يعرب عنها صلى الله عليه وسلم صراحة فى أحاديثه .

ولقد كتب الكثيرون فيما سموه بالسياسة الشرعية ولكنهم نحوا فيها نحو الفقه ولم يعرضوا أصول علم السياسة كما جاء بها الاسلام مع أنها قد حققت لدولة الاسلام الناشئة فى أضـيق الظروف وأقساها وأعنفها نجاحا منقطع النظير ومن هؤلاء أبو الحسن الماوردى وأبو يعلى الفراء وابن تيمية وابن القيم الجوزية وابن قتيبة وغيرهم ، ولكنهم اقتصروا على التطبيـق فى بعض النواحى دون التأصيل وتأثر بعضهم بمقتضيات الظروف وقت كتاباتهم .

وتعرضت بعض الكتب العربية لنواح من السياسة . فأورد ابن خلدون فى المقدمة آراء سياسية وأورد بعض أصحاب الأخبار فى الأغانى والأمالى والعقد الفريد وصبح الأعشى ونحوه طرافات عن السياسة والسلطان . وكتب بعض فلاسفة العرب فى هذه النواحى أيضا ولكن لم تعن العنـاية الكافية بوقائع هذه الملحمة التى نعرضها والتى تستحق كل الاهتمام والتدبر .

ولقد اخترت معركة النبى صلى الله عليه وسلم فى دولته الناشئة ضـد بنى اسرائيل بالذات لسببين ، أحدهما أنهم من أقسى الخصوم وأقواهم ممن دوخوا الأنبياء من قبله وممن شهد لهم بالدهاء وهم بعد ليسوا الا مثلا لمن يوجد على منوالهم فى كل عصر وكل زمان . فلزم عرض أسلوب النبى صلى الله عليه وسلم معهم لبيان معركة من المعارك العنيفة التى خاضها عليه الصلاة والسلام مع هؤلاء الخصوم الألداء وكيف عالجهم حتى انتصر عليهم كما لم ينتصر أحد ممن قبله أو بعـده . والسبب الثانى أننـا فى حرب مع اسرائيل وما زالت تتربص بنا الدوائر وتواجهنا بأساليب المكر والدهاء وتناوشنا من قريب أو بعيد ببعض ما ناوشت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبـه الكرام حتى كسر شوكتهم وأذلهم وانتصر عليهم .

ففى هذه الصفحات أعرض لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل السياسة ، ومنشىء الدولة الاسلامية الفتية الذى جابه أعنف الأعاصير والفتن وقاوم أحد أساليب النفاق والوقيعة وجابه الأعداء فرادى أو جماعات بأنواع من السياسة والحزم والعـلاج ، ما بين اللين والتسـامح ، وما بين الاعذار والانذار ، وما بين القوة والشدة والبتر وما بين الحرب والجهـاد . ونراه يصبر ويتجاهل وطورا يحلم ويتجمل . وطورا يوسع ويفسح وطورا يتجلى

بالقهر والعنف والشدة حتى قاد السفينة الى بر الأمان وترك بين أيدى خلفه تركة قوية ووسيلة قادرة فعالة فمنهم من أحسن القيـام عليها فأتت أكلهـا وأوفت بجنيها وثمارها . ومنهم من نام عنها أو جنبها طريقها فظلم بها وكل ذلك والأعداء فى كل حين متربصون . وقد رأينـا فى كل وقت كيف توفر الثمار فى بلدنا وتبادر الى جنيها كلما بذل فى أرضنا الطيبة الجهد والاخلاص وكيف وثب صلاح الدين الأيوبى بالبلاد الى ذروة السيادة وكيف تثب الى قمم النجاح فى عصرنا مما يدل على حيوية العناصر وصلاح التربة وخصبها ومما يحيى آمالنا فى قرب البلوغ وسهولة الوصول .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصـــل الأول

صفات بني إسرائيل وأخلاقهم

نشأة بنى اسرائيل :

نشأ بنو اسرائيل فى مصر من نسل أولاد يعقوب عليـــه السلام الذين هاجروا اليها عقب دخول يوسف عليه السلام الى مصر وتبوئه أمانة الخزانة منها واستدعائه لأبويه واخوته بنيامين والأسباط عليهم السلام .

ويعقوب هو اسرائيل وقد سماه الله كذلك فى قوله تعالى « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه » . (آل عمران ـ أول الجزء الرابع) .

وكان يعقوب مسلما على ملة آبائه ابراهيم واسحق ووصى بنيه من بعده بالاسلام وقال الله تعالى « ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب : يا بنى ، ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مســلمون » (البقرة الآية ١٣٢) وقال « اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبـــد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واســحق ، الهــا واحــدا ونحن له مسـلمون » (البقرة الآية ١٣٣) .

واذا كان الأنبياء على دين الاسلام فان أقوامهم قد انحرفوا عنه وقال الله تعالى « انا أنزلنا التوراة فيها هــدى ونور يحكم بهــا النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » (المائدة ٤٤) وقال « ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيــا بينهم » (آل عمران الآية ١٩) .

ولما بعث الله موسى وهارون عليهما السلام ، طلبا من فرعون أن يرسل معهما بنى اسرائيل مهاجرين من مصر بعد أن استحكم فيهم الظلم ، يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم أى يتركن على الحياة .

ثم هاجر موسى وهارون ببنى اسرائيل شرقا طالبين فلسطين ، فادركهم فرعون عند البحر ، فأوحى الله الى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفرق ماؤه عن طريق سلكه ببنى اسرائيل وتبعهم فرعون وجنوده ونجى الله موسى وقومه وأغرق فرعون ومن معه فى البحر .

نعمة الله على بنى اسرائيل :

وقال الله تعالى مذكرا بنى اسرائيل بنعمته عليهم « يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم واياى فارهبون » (سورة البقرة الآية ٤٠) .

وقال «يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وانى فضلتكم على العالمين » « واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم . واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون . واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » وقال « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (سورة البقرة الآية ٤٧ وما بعدها) .

وقال الله تعالى فى محكم كتابه « واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين » (سورة المائدة الآية ٢٠) .

وقال الله تعالى « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون (يعنى بنى اسرائيل) مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » (الاعراف الآية ١٣٧) .

ذلك بأن الله بعد أن أنجاهم من ذل فرعون لهم ، وتجلى عليهم بآياته البينات فشاهدوا نصر الله لهم وآياته الخارقة للعادات بأن فرق البحر وفجر لهم العيون وأرسل عليهم المن والسلوى وهما من أنواع الطعام قيل الأول مثل العسل والثانى هو طير السمانى (السمان) وبعد أن عفا عن ظلمهم وكفرهم . مكن لهم فى الأرض وجعل لهم دولة وملكا ، وكان لملكهم نبى الله سليمان عليه السلام ملكا لا ينبغى لأحد من بعده وحشرت له الجن والسباع والطيور وأرسل الله فى بنى اسرائيل الرسل وأوحى الى الأنبيـاء منهم وكان آخرهم زكريا ويحيى والمسيح عيسى ابن مريم عليهم صلوات الله وسلامه .

موجبات غضب الله على بنى اسرائيل :

الا أنه بدت من بنى اسرائيل صـفات غضب الله عليهم بها . وقد فصل الله أسباب ذلك فى القرآن الكريم ، وجعلهم مثلا لنوع من الناس يظنون أنهم ــ وقـد أنعم الله عليهم مرة ــ الشـعب المفضل المختـار مهمـا أتوا من الموبقات فيغترون بما أنعم الله عليهم به من الايثـار والعلم ويركنون الى ذلك فلا يصبرون على مكروه وينكثون العهد ارتكازا على ما آتاهم الله من فضله وتشيع فيهم الفاحشة والاثم ولا يتنـاهون عنه ، ويستغلون العـلم ويكتمونه عن الناس ويبدلونه ويجادلون بالباطل ويستخدمونه فى غير موضعه وفى طلب الدنيا ويقتلون دعاة الخير. وفى ذلك ايثـار للدنيا على الآخرة مما يجعل الله يصفهم بالكفر والاشراك والنفاق .

وهذا النوع من الناس من أخطر أعداء الله على أنفسهم وعلى المجتمع وهم فى كل مكان وزمان وضرب الله بنى اسرائيل مثلا عليهم . ومنهم علماء السوء الذين يلبسون الحق بالباطل ويضلون الناس باسم العلم .

ومنهم أناس كانوا من الصالحين فتـح الله لهم وجهـا من المعـرفة فاستدرجوا بها وهم لا يشعرون . ومنهم ولد الرجل الصـالح يركنون الى بركته ويتهاونون . ويركبـون الرخص ولا يلتزمون حـدود الله ويقولون سيغفر لنا . أو من يتجر بالدين ابتغاء النفوذ أو المال أو غير ذلك .

ومن المؤكد أن ذنب الجهـال ، على قبحه أصغر من ذنب أهل الدين الظاهرين بالعلم به . والحيطة داخل الدين وفى رحابه والحساب فيه أدق منه خارجه وقيل حسنات الأبرار سيئات المقربين . فكيف حال من فتح الله عليه بوجهات من القرب والعلم فأعرض عنها واشترى بها متاع الدنيا وغره دينه وضل سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعا .

ولذلك فان قصص بنى اسرائيل فى القرآن ليس سردا تاريخيا أو تذيرا لهم وقت نزوله ، ولكنه تحذير دائم لمن ينحرفون بالدين ، ويركبون متنه الى سبل الدنيا غافلين عن غضب الله عليهم . وان اثم العالمين أفدح من اثم الضال الجاهل .

الوجب الاول : دكونهم الى تفضيل الله لهم :

وقد فصل الله السبب الأول السابق ذكره من موجبات غضب الله على بنى اسرائيل ، وهو ظنهم أنهم يظلون الشعب المختار المفضل مهما أتوا من الآثام بقوله : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبنـاء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم » . (سورة المائدة الآية ١٨) .

وقوله « وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون » . (سورة البقـرة الآية ٨٠) .

وقال «فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هـذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » . (الأعراف الآية ١٦٩) .

ولا شك أن هذه العقيدة تورث العجب والكبرياء كما تورث الغرور (أى الانسياق وراء الباطل) والعنصرية والتعصب للجنس واحتقار الغيـر وكراهيته بلا سبب . كما تؤدى الى الجدل بالباطل والتشبث بالرأى بسبب العجب .

وفى ذلك رد على اختيار الله وتفضيله لهم فى وقت ليس معناه أن يظلوا المختارين ولو ساء حالهم . لأن الاختيار منوط بالتزام الأفضلية والمحافظة على سببه . أما اذا انفك عنها المختار لم يعد ثمة سبب لأن تظل له أفضلية .

أما اختيار الله لهم وهو أعلم بعيوبهم فسببه أفضليتهم وقت الاختيار وانما كل ابن آدم خطاء سريع أن يرد الى الفساد . قال الله يرد على قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه « بل أنتم بشر ممن خلق » . (سورة المائدة الآية السابقة) أى يصيبكم ما يصيب سائر الناس من الفساد عند العجب والغرور .

الموجب الثانى : سوء استعمال العلم :

أفاض الله على بنى اسرائيل فيوض العلم فأساءوا استعماله ووجهوه غير وجهته واغتروا به ووالاهم العجب ففسدت قلوبهم .

أما أن منهم علماء فقد شهد الله بذلك فى كثير من الآيات كقوله « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل » . (الشعراء الآية ١٩٧). ولكن منهم الأميون الذين لا يعلمون الكتاب الا أمانى . فليسوا سواء فى العلم . كما أن جدلهم مع النبى صلى الله عليه وسلم ــ وان كان عن سوء طوية ــ الا أنه يشهد بتبحرهم .

ومن ورد ذكرهم ممن فتح الله عليهم فى العلم فأساءوا استعماله السامرى وكان من أصحاب موسى عليه السلام فلما ذهب للقاء ربه فتن قومه فأخرج لهم عجلا جسدا من الذهب له خوار وقال له موسى « فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى » (طه الآية ٩٥ وما بعدها) . فقد قيل فى ذلك ان الله كاشفه واختصه برؤية جبريل عليه السلام . وكانت الروح والحياة تدب اثر خطاه . فأبصر بذلك دون غيره فقبض قبضة من أثر أقدام جبريل عليه السلام وخلطها بالذهب فخار العجل وفتن به قومه .

ومن ذلك أيضا قارون وكان من قوم موسى وقال الله فيه « وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة » قيل يعنى فتح الله عليه فى علم الكنوز فلما أنبه الناس « قال انما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا » . (القصص الآيات ٧٨ وما بعدها) .

وقيل منهم أيضا من ورد فيــه « واتل عليهم نبــأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » قيل وهو عالم من علمــاء بنى اسرائيل اسمه بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله وقيل كان عنده اسم الله الأعظم وروى أن قومه طلبوا منه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى ولم يزالوا به حتى فعل (١) . وقال فيه الله « ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبــع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » (الأعراف الآيات ٧٦ وما بعدها) .

ومن فساد بنى اسرائيل أن يكتموا العلم ويلبسوا الحــق بالباطل وأن يجادلوا بغير الحق ويشتروا بالعلم وآيات الله ثمنــا قليلا ولا يتعظون بما يظهره الله لهم من الآيات .

وقال الله فى كتمانهم العلم « وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » . (البقرة الآية ٤٢) .

ولقد بدل بنو اسرائيل الكثير مما أنزل اليهم من بعد ما كتموه وجعلوه سرا بينهم وقال الله تعالى فيهم « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه » . (البقرة الآية ٧٥) وقال « يكتبون الــكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » . (البقرة الآية ٧٩) وقال « يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به » (سورة المائدة الآية ١٣) . وعن ابن مسعود رضى الله عنه قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية وتلا هذه الآية « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم » . (البقرة الآية ٥٩) .

ودل على استغلالهم العلم وشرائهم به متاع الدنيــا ما ذكرناه من قصة قارون وبلعم بن باعوراء والسامرى . فأولهم استغل علمه فى الثراء والأبهة وثانيهم فى نعيم الدنيا ورضا أهلها وثالثهم فى النفوذ والسطوة ومنه اتباعهم ما تتلو الشياطين واستعمالهم السحر وقال الله تعالى « نبــذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهــورهم » . (البقرة الآية ١٠١) وقال الله

---

(١) شرح النسفى الجزء الاول صفحة ٥٨٨ .

تعالى « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » وقال « بئسما اشـتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا » (سورة البقرة الآيتين ٤١ و ٩٠) .

أما الانصراف عن الله من بعد ما يبين للعبد آياته فهو من أشد موجبات غضب الله وهو من قبيل الكفر والجحود . لأن آيات الله غالية وليس اظهارها الا غاية فى التفصيل والتقدير . فاذا جحدها من ظهرت له من بعد ما بينها الله كان ذلك اغماطا لها واحتقارا لشأنها وهو من أشد ما يؤاخذ عليه وبه يغلظ قلبه وقال الله تعالى « سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب » (البقرة الآية ٢١١) .

موجبات اخرى : نقض العهود واتيان المعاصى والانحلال وعدم الصبر على المكاره :

لما هاجر موسى عليه السلام بقومه هربا من فرعون ونجاهم الله منه كان حقا عليهم أن يؤمنوا بموسى وهارون ورسالتهما ، ولكن لما واعد الله موسى لميقاته بالطور وترك قومه أربعين ليلة ، زين لهم السامرى أن يعبـدوا عجلا صنعه لهم من الذهب وجعله يخور كما قدمنا . ورجع موسى من الموعد ومعه الألواح فيها حكم الله وهو التوراة فلما وجدهم انصرفوا الى العجل غضب وألقى الألواح وعنفهم وأخاه . قال الله تعالى « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون . واختـار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة « الزلزلة الشديدة » قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنـا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هـدنا (رجعنا وتبنا) اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنـا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى (محمد) الذى يجدونه مكتوبا عنـدهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحـل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبـائث ويضع عنهم اصرهم (التكاليف الصـعبة التى فى التوراة) والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعـزروه ونصروه

واتبعوا النور (أى القرآن) الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » (الاعراف الآية ١٥٤ وما بعدها) .

وبعد هذا الميثاق عاد شعب بنى اسرائيـــل يستصعبون أحكام التوراة فأرسل الله جبـــريل فاقتلع الجبل ورفعـــه كأنه ظلة وقال لهم موسى اقبلوا التوراة والا ألقى عليكم الجبـــل وفى ذلك يقول الله تعـــالى « واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور » (سورة البقرة الآية ٦٣) وقال كذلك « واذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم » (الأعراف الآية ١٧١) .

ومنه أيضا « واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةثم توليتم الا قليلا منكم وأنتم معرضون . واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخـــرجون أنفســـكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محـــرم عليكم اخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحيـــاة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون » (سورة البقرة الآيات ٨٣ وما بعدها).

وقد يكون اعراض بنى اسرائيل عن المواثيق وخلفهم لعهدهم سببه حب الحياة وايثارها والجبن وعدم تحمل المشاق .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى « واذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومهـــا وعدسها وبصلها » (البقرة الآية ٦١) ومنها قصة طالوت التى جاء فيها قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منـــه فليس منى ومن لم يطعمه فانه منى الا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه الا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » (البقرة الآية ٢٤٩) .

ويدل عليها عصيانهم لموسى وهم فى طريقهم الى الأرض المقدسة والتى قال الله فيها « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا

على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منهــا فانا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم البا بـفاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون . قال رب انى لا أملك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » . (سماهم الفاسقين لخروجهم عن الطاعة) (سورة المائدة الآيات ٢١ وما بعدها) .

وقد وصفهم الله بحب الحياة فقال « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » (البقرة الآية ٩٦) كما أنهم كانوا يحبون المال حبــا جما ويشترى علماؤهم ــ كما قدمنا ــ بآيات الله ثمنا قليلا . وكذلك كانوا يحبون اللهو والمتعة فقد جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنــا الا أنه آدر « « رواه البخارى فى كتــاب الغسل با بـمن اغتســل عريانا وحده فى الخلوة ومن تستر فالستر أفضل » وعن ابن مسعود قال ؟ كان الرجال والنسـاء من بنى اسرائيل يصلون جميعا فكانت المرأة تتشوف للرجل فألقى الله عليهن الحيض ومنعهن المســاجد .» وربما ألقى عليهن الاستحاضة أى دوام نزول الدم وعدم انقطاعه اذ أنه ورد فى الحيض قول النبى صلى الله عليه وسلم « هذا شيء كتبه الله على بنات آدم » وجاء عن عمرة بنت عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها « لو أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ما أحد ثـالنساء لمنعهن من المســاجد كما منعت نساء بنى اسرائيل » . قال يحيى بن سعيد لعمرة : أو منعن ؟ قالت نعم .

ثم انهم بعد ذلك كانوا لا يتناهون عن السوء وسبب ذلك هو انحلال عقدة المجتمع فيهم . اذ عدم التناهى اما أن ينشأ عن شيوع الفاحشة والاثم فلا ينهى غيره حتى لا ينهاه أو يعيره ، أو بسبب الكبرياء مخافة أن يصــده اذا نهاه . وقال الله تعالى « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيــل على لسان

داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (المائدة الآية ٧٨ ، ٧٩) .

ولا شك أن ذلك من أسوأ مظاهر السقوط والانحلال فى المجتمع ولا يجد من بعده عاصما يعصمه من الانهيار والتداعى .

ولم يقتصر الأمر على الكف عن التناصح ، بل زاد الى كراهة دعاة الخير بل الى قتلهم وقتل الأنبياء . وهكذا استبد بهم حب الدنيا والمال والمتعة الى حد الاجرام وسفك الدماء بغير الحق . وقد وردت فى ذلك كثير من الآيات منها قوله تعالى « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . » (البقرة الآية ٨٧) وقوله فيهم « ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم » (آل عمران الآية ٢١) وغير ذلك كثير .

ولعل آخر ما ارتكبه بنو اسرائيل فى ذلك قتلهم يحيى عليه السلام لما جاء مبشرا بعيسى ، فقد أزعجهم كثرة نذيره وتأنيبه لهم على ترفهم وفسادهم وسوء حالهم فقتلوه . وكذلك فقد ائتمروا بالمسيح عيسى عليه السلام فرفعه الله اليه وقتلوا شبيهه وهم لا يعلمون .

وهكذا كان شأن بنى اسرائيل فى اتيانهم المعاصى وكراهتهم للنصح وسدورهم نحو الباطل يجادلون فيه ويقتلون الذين يأمرون بالخير ولا يتناهون بينهم عن الرذيلة . وليس من وصف لمجتمع بأقذع من ذلك الذى أورده القرآن فيهم .

النتيجة :

والنتيجة هى أن كثرة الآثام والمعاصى أغلظت قلوبهم وأظلمتها وجعلتها غلفا وقاسية واذا أظلمت القلوب وقست قويت فى النفس سورة الشر واعتادتها فلا تعود تتردد فى ارتكابه بل تعتاده ويسهل عليها ولا تؤاخذ نفسها عليه .

وقال الله تعالى فيهم « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج

منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون » (البقرة الآية ٧٤) وقال أيضا . فبما نقضهم ميثاقهم وكفـرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا » (النساء الآية ١٥٥) وقال أيضا « فبما نقضهم ميثاقهم لعنـاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم » (المائدة الآية ١٣) .

ومما نتج عن ذلك بسبب غضب الله عليهم وانصراف قلوبهم الى جهة المعاصى ان شق الله عليهم فى التكاليف . وقد تشددوا فى البقرة فشـدد الله عليهم (فى سورة البقرة الآيات ٦٧ وما بعدها) وعصوا موسى عليه السلام فى دخول الأرض المقدسة فتاهوا فى الأرض أربعين سنة .

وقال الله تعالى « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم » (النساء الآية ١٩٠) ثم ان الله قـد حمل عليهم أمدا فى التكاليف لشـدة نفوسهم وحاجتها الى التقويم . وان الاسلام جاء تخفيفا لهم ولم يؤمنوا به فأبوا واستكبروا . وقال الله تعالى « الذين يتبعـون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضـع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (الاعراف الآية ١٥٧) .

ومما ابتلاهم الله به نتيجة لما سبق ، خصلة النفاق . فكانوا فيما بينهم يتناجون بالاثم والعدوان والمعصية ، ويظهرون أمام الناس الورع والتقوى والتدين ويعيبون عليهم تفريطهم . كما كانوا يتسلقون الظالمين ويخضعون لهم.

وفى ذلك قال الله تعالى « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » (البقرة الآية ١٤) وقال أيضا « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضـهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عنـد ربكم أفلا تعقـلون ؟ » (البقرة الآية ٧٦) وقال فيهم « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟ » (البقرة الآية ٤٤) وقال الله «ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا . لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ان سخط الله عليهم وفى العـذاب هم خالدون . » (المائدة الآية ٨٠) .

الفصل الثانى

الظروف فى المدينة قبل الهجرة

هجرة الانصار الى المدينة

الأوس والخزرج هما ولدا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء ــ وسمى كذلك لأنه كان يمزق عنه كل يوم حلة حتى لا يلبسها أحد بعده ــ ابن عامر ابن حارثة بن امرىء القيس البطريق وقد سمى البطريق لأن رحيعم بن سليمان ابن داود استعان به وبطرقه وكان أول من استعان به بنو اسرائيل من العرب بعد بلقيس وهو ابن ثعلبة بن مازن بن الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (١) .

---

(١) الكامل لابن الاثير ــ الجزء الاول صفحة ٤٠٠ وما بعدها . انظر كذلك سيرة ابن هشام المجلد الثاني صفحة ٣١ وما بعدها .

وقال ابن خلدون ان الخزرج خمسة بطون هم كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث .

اما كعب فمنه بنو ساعده .

واما عمرو فمنه بنو النجار اخوال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو . وقد ولد له مالك وعدى ومازن ودينار . ومن مالك عمرو وغانم ومبذول واسمه عامر بن مالك . ومن عمرو . عدى ومعاوية .

اما عوف بن الخزرج فمنه بنو سالم ومنهم بنو العجلان بن زيد بن غصم بن سالم . ومن عوف بن الخزرج ايضا القواقل وهما ثعلبة بن قوقل ومرضخة بن قوقل .

واما جشم بن الخزرج . فمنه غضب وتزيد ومن غضب جاء عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب وهوابو بنى بياضة وبنى زريق ومن تزيد جاء على بن راشد بن شاردة بن تزيد وهو ابو بنى سلمة .

واما الحارث بن الخزرج فمنه بنو خدرة بن عوف ؛ وبنو حرام بن عوف .

واما الاوس فقد ولد له مالك بن الاوس وهو ابو اربعة بطون للاوس فكلهم اولاد مالك بن الاوس .

والبطون الاربعة هى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس . والخزرج بن عمرو بن مالك بن الاوس وامرؤ القيس بن مالك بن الاوس .

اما عمرو بن عوف بن مالك فمنه ضبيعة بن جشم وثعلبة بن عمرو بن عوف ولوذان بن عمرو بن عوف ؛ وعوف بن عمرو بن عوف . ومن هذا الاخير حنش ومالك وكلفة . ومن مالك معاوية وزيد ؛ ومن زيد عبيد وضبيعة وامية ومن كلفة جحجبا (وقيل جحجبى) .

واما الخزرج بن عمرو بن مالك بن الاوس فمنه الحارث وكعب ومن الحارث حارثة ومن جشم بنو عبد الاشهل . اما كعب بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الاوس فمنه بنو ظفر .

ومن مرة بن مالك بن الاوس بنو أسيد (الجمارحة) وبنو عامر ومنهم بنو عطية وبنو امية وبنو وائل وكلهم بنو زيد بن قيس بن عامر .

واما امرؤ القيس بن مالك بن الاوس فمنه بنو اسلم وبنو واقف .

وهم فى الأصل قحطانيون من قبائل الأزد باليمن .

وكانت مساكن الازد بمأرب من اليمن الى أن أخبر الكهان عمرو بن عامر مزيقياء انسيل العرم يخرب بلادهم ويغرق أكثر أهلها عقوبة لهم لتكذيبهم رسل الله تعالى اليهم . فلما علم عمرو بذلك باع ماله وسار عن مأرب هو ومن تبعه ثم تفرقوا فى البلاد فسكن كل بطن ناحية اختاروا . فسكنت خزاعة الحجاز وسكنت غسان الشام . ولماسار ثعلبة بن عمرو بن عامر فيمن ساروا اجتازوا المدينة . وكانت تسمى يثرب وهناك تخلف الأوس والخزرج ابنا الحارث واستقرا فيها .

غلبة اليهود على الاوس والخزرج :

وكان بنو اسرائيل قد سبقوهم اليها وكانت بها قرى وأسواق وحصون وكانت المدينة مقسمة الى أحياء مستقلة متباعدة كل منها عن الآخر وفى كل حى كان يقيم بطن من بطون اليهود أو الأوس أو الخزرج .

وفيه كانت الأراضى التى يزرعونها وديارهم ، ثم اطم « حصن » يسكن فيه رأسهم وسيدهم . وقيل الاطم من اطم يعنى علا وارتفع . وقالوا من كلمة عبرية معناها اغلق وسد . وفى الاطم كانت تخزن المؤن وكان يأوى اليه أهل الحى عند الغارة . وكانت اطم اليهود فاخرة الرياش والأثاث بها دور العبادة . والمكتبات ومعاهد العلم ونحوها .

وقد كانت الغلبة فى المدينة لليهود وكان لهم الحكم والسيادة الى أن عدا مالك بن العجلان من الأوس على ملك اليهود الفطيون فقتله فكان ذلك سببا لظهور الأوس والخزرج (١) .

وتفصيل ذلك أن الفطيون كان ملكا من بنى اسرائيل وكان فاجرا فاسقا . فضرب على الناس الا تتزوج امرأة الا ويدخل بها قبل زوجها .

فلما عقد لأخت لمالك بن العجلان دخلت على الناس كاشفة ساقيها فقيل لها فعلت سوءا فقالت ما يفعل بى الليلة أسوأ اذ كيف يدخل بى رجل

---

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الاول صفحة ٤٠١ ومابعدها فى ذكر غلبة الانصار على المدينة وضعف أمر اليهود بها وقتل الفطيون .

غير زوجى . فأثار ذلك أخاها مالكا واتفقا على أن يتزيا بزى النساء حتى اذا انصرف السامر بقى هو مع العروس فاذا انفرد بها الفطيون قتله . فلما تم له ذلك هرب الى الشام الى ملك من ملوك بنى غسان يقال له جبيلة فاستثار حميته فأقسم ألا يضع طيبا ولا يقرب النساء حتى ينتقم من بنى اسرائيل . وسار جبيلة برجاله الى المدينة موريا بغيرها ، حتى اذا مر بها نزل وتحايل حتى اجتمع بكبراء اليهود ووجهائهم فى مأدبة ثم أحاط بهم وقتلهم عن آخرهم وبذلك ظهرت الاوس والخزرج على بنى اسرائيل .

ولقد كان من أسباب غلبة اليهود على الاوس والخزرج أنهم كانوا أهل علم وتقدم وكانوا يفخرون على الاوس والخزرج بدينهم وأنهم ذوو كتاب ودين من السماء ، ويعيرونهم بأنهم عباد أصنام . وكانوا على بينة من بعث النبى صلى الله عليه وسلم بما ورد فى كتبهم ويهددون الاوس والخزرج به أنه اذا ظهر انتصروا به عليهم . وقد قال الله تعالى « الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » (الاعراف الآية ١٥٧) وقال أيضا « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » (البقرة الآية ٨٩) . أى يستنصرون على المشركين اذا حاربوهم فيقولون اللهم انصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ويقولون لأعدائهم المشركين ؟ لقد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وارم » (١) .

الحرب فى المدينـــة

وقد وقعت بين الأوس والخزرج حروب متعددة فى الجاهلية (٢) أولها حرب سمير . وكان سببها أن غطفانيا نزل المدينة بفرس وقال سأعطيه لأفضل أهل المدينة . فتناظر الناس فى ذلك حتى وقعت الحرب بينهم . ثم وقع يوم السراة وحرب الحصين بن الأسلت وحرب ربيع الظفرى وحرب فارع وحرب حاطب ويوم الربيع ويوم البقيع وحرب الفجار ويوم معبس ومضرس ويوم الفجار الثانى ويوم بعاث .

(١) تفسير ابن كثير الجزء الاول صفحة ١٢٤ .

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الاثير الجزء الاول صفحة ٤٠١ الى ٤١٩ وما بعدها .

وبذلك تأصلت العداوة بين قبيلتى الاوس والخزرج بالمدينة من زمن طويل كما كانت بينهم وبين اليهود عداوة جعلت الحرب تنشب بينهم بين الفينة والأخرى فلا تكاد تهدأ حرب حتى تقوم أخرى فكانت الحرب قائمة فى المدينة على أى لون من الألوان .

وقيل ان اليهود لما رأوا ما يجره عليهم اتحاد الاوس والخزرج من ذهاب سيادتهم على المدينة عملوا على الدس بين القبيلتين ليشغلوها عنهم ويحولوا دون اتحادهم عليهم . فاستحكمت العداوة بين القبيلتين حتى كانت تقوم بينهما الحرب لأوهى الأسباب مما ضعضع قواهم وأذهب أموالهم وأفنى رجالهم وشغلهم عن اليهود وغيرهم .

كان اليهود يحالفون القبيلة المهزومة على المنتصرة حتى تضعف شوكتها وتمنع تسلطها فيحتفظون من دون القبيلتين بالسيادة وموارد المال والأعمال الهامة تاركين لهما أحقر الأعمال ولذلك كانت القبيلتان فى حاجة لليهود وتبع لهم . وذلك ملحوظ فى يوم الفجار الثانى ويوم بعاث .

هذا مع أن اليهود لم يكونوا على وفاق فيما بينهم كما قال الله تعالى «تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى» فقالوا والذى نراه أنه حدث أنهم يتسافكون الدماء وكانت التوراة قد حرمت عليهم ذلك فأنزل الله فيهم « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم » (البقرة الآية ٨٥) .

وقد كان يوم بعاث فى زمن بعث النبى صلى الله عليه وسلم وقد جاء الأنصار فى يوم العقبة الأولى للنبى صلى الله عليه وسلم وقالوا له لقد تركنا قومنا وما بين قوم شرا مما بينهم ، وذلك لشدة ما وقع بينهم من الخصام والقتل قال « ابن الأثير » [1] وكان بنو قريظة وبنو النضير « من يهود المدينة » قد حالفوا الأوس على الخزرج فى يوم الفجار . فلما هزمت الاوس جددت بنو قريظة وبنو النضير العهود مع الاوس على المؤازرة

---

(١) الجزء الأول صفحة ٤١٧ .

والتناصر واستحكم أمرهم وجلدوا حربهم ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا . فلما سمعت الخزرج بذلك جمعت وحشدت وراسلت حلفاءها من أشجع وجهينة وراسلت الأوس حلفاءها من مزينـة ومكثوا أربعـين يوما يتجهزون للحرب والتقوا ببعاث وهي من أعمال قريظة وعلى الاوس حضير الكتائب بن سماك والد اسيد بن حضير وعلى الخزرج عمـرو بن النعمان البياضي وتخلف عبدالله بن أبي بن سلول فيمن تخلف عن الخزرج وتخلف بنو حارثة بن الحارث عن الأوس .

فلما التقوا دار بينهم قتال شديد وصبروا جميعا ثم ان الأوس هزموا من السلاح فولوا نحو العريض .

فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطعن قدمه بسن رمحه وصاح واعقراه كعقر الجمل والله لا أعود حتى أقتل . فان شئتم يا معشر الأوس أن تسلموني فافعلوا فعطفوا عليه وقاتل عنـه غلامان من بني الأشهل يقـال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتل . وقتل عمرو بن النعمان البياضي رئيس الخزرج بسهم لم يعرف راميه .

فبينما كان عبد الله بن أبي سلول يتردد راكبا قريبا من بعاث يتحسس الأخبار اذ طلع عليه بعمرو بن النعمان قتيلا في عجاءة تحمله أربعة رجال فلما رآه قال ذق وبال البغي وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الاوس الســلاح فصاح صائح يا معشر الأوس احسنوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعلب « يعني اليهود » فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وانما سلبهم قريظة والنضير وحملت الأوس حضـيرا مجروحا فمات . وأحرقت الأوس دور الخزرج ونخيلهم فأجار سعد بن معـاذ الأشهلي أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرعل ونجا يومئذ الزبير وابن اياس بن باطـا ثابت بن قيس الخزرجي أخذه تجز ناحيته وأطلقه وهي اليـد التي ذكرها له ثابت في الاسلام يوم بني قريظة .

وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ثم جاء الاسلام واجتمعوا على نصره وكفى الله المؤمنين القتال .

فهكذا كانت الظروف قبل الهجرة .

فاليهود وان كانوا أصحاب الثراء والعلو الا أنهم كانوا يضطرون الى الحرب مع الأوس والخزرج . ولذلك فهم من مقدم النبى على أحد الأمرين اما أن يكون لهم علىهذين ظهيرا بحسبانهم جميعا أهلدين ، أو يكونللاوس والخزرج وفى ذلك خطر على نفوذهم وقضاء نهائى على كلمتهم وكيانهم .

وأما الأوس والخزرج فقد أنهكتهم الحروب وبرموا بهـا وعزموا على فض الخلاف بأية وسيلة وهموا بتمليك عبد الله بن أبى بن سـلول عليهما جميعا حتى يتوحدوا وينفض الخلاف . وان كانوا بطبيعة الحال علىحذر ولا يقبلونه الا على مضض لأنه لا مبدأ له كما تبينا من موقفه فى بعاث . وكان له موقف فى يوم الفجار الأول وكان قائدا فيه على الخزرج . وقد سمى يوم الفجار لما فيه من الغدر .

ولذلك كانوا فى قرارة نفوسهم غير مقتنعين بملكه عليهم . فلما جـاء النبى صلى الله عليـه وسلم وجدوا فيه نشدتهم وغايتهم فكانت مبـايعته كما سترى .

الفصل الثالث

الهجرة إلى المدينة

وعهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يهود

هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة بتوفيق من الله . ولم يرتب احتمالات جمع الاوس على الخزرج والظهور بهما على اليهود وامكانيات انشاء دولة جديدة فى ذلك المكان .

ومما يدل على ذلك أن البخارى روى عنه صلى الله عليه وسلم (رأيت فى المنام انى أهاجر من مكة الى أرض بها نخل فذهب وهلى أنها اليمامة أو هجر فاذا هى المدينة يثرب) .

وكذلك فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على القبائل فى المواسم وروى أنه استنصر غير الأوس والخزرج فأبوا . وروى الامام أحمد عن جابر بن عبد الله (مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم وفى عكاظ ومجنة فى المواسم من يأوينى من ينصرنى حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة) فلو كان له اتجاه خاص الى الأوس والخزرج لما عرض نفسه على سائر القبائل .

وأما الاوس والخزرج فقد كان لهما دافع من ايواء النبى صلى الله عليه وسلم كما قدمنا وقال الدكتور حسين هيكل ان القبائل تنافست فى استقباله لاسباب سياسية واجتماعية ولذلك لم يكن مشركو المدينة ويهودها أقل من المسلمين فى اقبالهم على حسن استقباله (١) .

ومهما يكن فلا شك أن المدينة كانت تتوق الى القيادة الرشيدة الواعية فى وقت ضاق فيه الاوس والخزرج عن عجزهم عن سياسة أنفسهم وعن

(١) حياة محمد صفحة ٢١٥ .

قمع الحروب بينهما واستغلال اليهود لذلك . ولم يكن يرضى أحدهما أن تكون القيادة للآخر . فوجدا متنفسا أن تكون القيادة من غيرهما . هـذا وقد عثروا في النبي صلى الله عليه وسلم على المبدأ الذى تهتـذ الى قلوبهم وشحذ عزائمهم وقبلوا ان يجتمعوا عليه وقد كانوا يشعرون من قبل ان دين السماء هو المبدأ السليم الكفيل برقيهم ولكن اليهود كانوا يحتكرون العلم ولا يبثونه على النـاس وكانوا يبـاهون به ويعـايرون الغير فظل الأوس والخزرج محجوبين عن الدخول فى اليهودية يتوقون الى الدين فلا يجـدونه وآثر اليهود ان يجعلوا من دينهم ارستوقراطية يكونون فيه السادة وغيرهم الدهماء . وقال الله تعالى (قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل) (آل عمران الآية ٧٥) فسموا غيرهم اميين .

البيعة على الهجرة :

قال ابن اسحق (١) فلما أراد الله اظهار دينه واعزاز نبيه وانجاز موعده له خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الانصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم فبينما هو عند العقبة لقى رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا قال وكان مما صنع الله بهم فى الاسلام ان يهودا كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شىء قالوا (ان نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وارم) .

قال فلمـا كلم رسول الله صلى الله عليـه وسلم أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلمون والله انه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم اليه . فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا ما عرضه عليهم من الاسلام وقالوا انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى ان يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثاني صفحة ٣٧ .

عليهم الذي أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا راجعين الى بلادهم قد آمنوا وصدقوا (١) .

وجاء في الصحيحين وغيرهما ان عبادة بن الصـــامت رضى الله عنه قال بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الاولى الا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وارجلنا ولا نعصيه في معروف فان وفيتم فلكم الجنة وان غشيتم من ذلك شيئا فأخذتم بحدة فى الدنيا فهو كفارة له وان سترتم عليه الى يوم القيـامة فأمركم الى الله ان شاء عذب وان شاء غفر (٢) .

قال ابن اسحق (٣) « فلما قدموا المدينة الى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم الى الاســلام حتى فشى فيهم فلم تبق دار من دور الانصار الا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد أسلم سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير ســيدا قومهما من بنى عبد الأشهل ودل خبر اسلامهما الى ماشرح الله به صدر الانصار للاسلام وسرعة دخوله الى قلوبهم بما نكتفى بذكر دلالته . وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى وصف أهل المدينة من الاســلام « فيخرج الرجل فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب الى أهله فيسلمون باسلامه حتى لم تبق دار من دور الانصار الا وفيها رهط من المسلمين (٤) » .

وقال جابر فى حديثه ذاك « ثم ائتمروا جميعا فقلنا الى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ » .

فلما كان العام التالى خرج من الانصار الى الحج سبعون رجلا وواعدوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يلقوه فى العقبة من أوسط أيام التشريق « أيام عيد الاضحى » واجتمعوا متفرقين يذهب اليها الرجل او الرجلين حتى توافوا عندها ليلا وجاءهم النبى صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبـد

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ــ الجزء الثانى ص ١٧٧ .
(٢) صحيح البخارى كتاب الايمان .
(٣) سيرة ابن هشام ــ المجلد الثانى ص ٣٩ .
(٤) سيرة ابن هشام ــ المجلد الثانى ص ٤٣ ومابعدها .

المطلب وهو يومئذ على دين قومه الا انه أحب ان يحضر أمر ابن أخيه يتوثق له وقال العبــاس «ان محمدا منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عزة من قومه ومنعة فى بلده ، وانه أبى الا الانحيــاز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه « يعنى يحفظ ويجعلونه منيعا » ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليــكم فمن الآن فدعوه فانه فى عزة ومنعة من قومه وبلده « قال كعب بن مالك انه بعد ان تلا النبى صلى الله عليه وسلم القرآن ودعا الى الله ورغب فى الاســلام » فأخذ البراء بن معرور بيده وقال نعم فو الذى بعثك بالحق لنمنعنك ممــا نمنع منه ذرارينا « نســاءنا » فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابرا عن كابر » فقال النبى صلى الله عليه وسلم اخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بمــا فيه » فاخرجوا منهم تســعة من الخزرج هم أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة وهو الذى نصب أميرا على الجيش فى مؤتة واســتشهد فيها » ورافــع بن مالك بن العجلان . والبراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام « وهو أبو الصحابى الجليل جابر بن عبد الله » وعبادة بن الصامت وسعد بن عبــادة بن دوليم ، والمنذر بن عمرو . ومن الأوس ثلاثة هم أسيد بن حضير والحارث بن مالك بن كعب ورفاعة بن عبد المنذر .

وروى الامام أحمد بن عبد الله ان النبى صلى الله عليه وسلم قال يومها «تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن تقولوا الحق لاتخافوا فى الله لومة لائم وعلى أن تنصرونى لتمنعونى اذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » قال جابر فقمنا اليه فبايعنــاه . وقال ان أسعد بن زرارة قام وقال : « رويدا يا أهل يثرب فانا لم نضرب اليه آكبــاد الابل الا ونحن نعلم أنه رسول الله وان اخراجه اليوم مناوأة للعــرب كافة فاما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله واما أنتم قوم تخافون من أنفســكم خيفة فذوره فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله : قالوا « أطعنا

يا أسعد فوالله لاندع هذه البيعة ولا نسلبها أبدا » وقال ابن كثير في هـذا الحديث اسناده على شرط مسلم (١) .

وقال ابن اسحق ان العباس بن عبادة أخا بنى سلم بن عوف قال يومها « يامعشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا نعم قال انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فان كنتم تـرون أنـكم اذا انهكت أموالكم مصيبـة واشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكه الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة قالوا فانا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا يارسول الله ان نحن وفينا ؟ قال الجنة قالوا ابسط يدك فبسط يده فبايعوه » .

دلالة البيعة :

ونرى أن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه البيعة كان يقيم أسـاس دولة الاسلام أول ما أنشئت ، فقـد كانوا يتعاهدون على ميثاقها الأول اذ صار لها أرض وشعب وحكم ونظام .

ولقد كان المتبادر الى الذهن أن يعاهدهم على الايمان والاسلام جملة والقرآن وحكم الله نظاما ، ولكنه خصص العهد فى ميثـاقه الأول فعاهدهم فى بيعة العقبة الأولى الا يشركوا بالله شيئا ولا يسرقوا ولا يزنوا.ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتـــان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصـوه فى معروف . وهى صيغة بيعة النساء كما وردت فى سورة الممتحنة (الآية ١٢) ثم عاهدهم فى العقبة الثانية على ماقدمنا من السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

السيرة النبوية لابن كثير الجزء الثانى ص ١٩٥ وما بعدها وانظر كذلك سيرة ابن هشام المجلد الثانى ص ٣٨ وما بعدها .

وأن يقولوا فى الله لايخافون لومة لائم وان ينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم .

ونقول ان العهد بلا شك فى عمومه يشمل الاسلام كله والقرآن وحكم الله اذ هى وحدة لاتفريط فى بعضها ولكن كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم يخصص أحيانا فى البيعــة أو فى النصيحة بما يوافق الحال . ويكون الزم من غيره وقت العهد أو النصح (١) .

وانى أظن أن مواد هاتين البيعتين تستجمع العناصر الأولى لتكوين المجتمع والتى بدونها لا مجتمع ولا نظام وانها تؤلف الخلية الاجتماعية على وجهها الصحيح بان تنشىء جماعة مطمئنة تقيم النظام فى هذه الجماعة .

ففى البيعة الأولى كانت أولى العناصر ، الاجتماع على الله لايشركون به شيئا لأن هذا هو اللون الأساسى لهذه الآية الجديدة وجماع مبادئها . ومعــه تتبع طاعة الله فى كل ما أمر والانتهــاء عن كل مانهى ثم ان المجتمع لايكون مجتمعا الا اذا أمن الفرد فيه على ماله وعرضه ونفسه وسادت الثقة بين أفراده فاما عصمة المال فقد بايعهم عليها الا يسرقوا واما عصمة العرض فقد شرط عليهم ألا يزنوا واما عصمة النفس فقد ضمنها بألا يقتلوا واما الثقة فقد صانها بألا يأتوا ببهتان يفترونه . وبذلك يقوم مجتمع أساسه توحيد الله وامان النفس فيما بينهم وثقتهم بعضهم ببعض . وهذه عناصر اجتماع الناس فيما بينهم .

وأما البيعة الثانية فهى تقيم النظام فى هذه الجماعة وتضع أسس العلاقة بين الحاكم والمحكوم على أساس الولاء للحاكم ونصرته والالتفاف حــول مبدئه لا حول شخصه .

انظر فى ذلك فتح البارى بشرح البخارى للامام ابن حجر الجزء الاول ص ١٤٧ قال فى القرطبى كانت مبايعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه بحسب مايحتاج اليه من تجديد عهد أو توكيد امر ولذلك اختلفت الفاظهم .

ويلاحظ فى بيعة العقبة الثانية أنها حوت أسس التنظيم كأحدث ما حدده علماء الاجتماع فجعلت من النبى صلى الله عليه وسلم نواة الخليـة التى يجتمع حولهـا الأعضـاء بالسـمع والطـاعة والنشـاط بالعمل والنفقـة فى كل الأحوال وان جعلت من المبـايعين أعضـاء متماسـكين برباطين أحدهما التناصح وقد قدمنا من قبل أنه لحمة المجتمع ووشيجة تماسـكه والثانى هو اتباع الحق ذاته « أن تقولوا لله لاتخافون لومة لائم » وهو قيد على الحاكم والمحكوم . يبدونه فيما بينهم فى تناصحهم وللحاكم ثم يؤدون للحاكم حقه من النصرة والمنعة .

وتعتبر هذه البيعة الثانية مرحلة أرقى وأسمى فى تـكوين المجتمع المقبل من مرحلة البيعة الأولى .

فبدون الأولى لا مجتمع على الاطلاق وبدون الثانية يـكون مجتمع ولكن مع تفكك وضعف وفوضى .

وعلى ذلك فقد هيأت هاتان البيعتان لانشاء الدولة الاسلامية الأولى فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم بعد من هاجر من المهاجرين — الا من حبسه الظلم بمكة — كانت الظروف مهيأة للقائه .

الا أنه لايمكن القول بأن الدولة الاسـلامية قد نشأت بهاتين البيعتين قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة . اذ أن عناصر الدولة لم تتكامل قبل هجرته عليه الصلاة والسلام الى المدينة . فقـد كان المؤمنون بالمدينة فئة من فئاتها لاتمارس السلطة ولا تظهر بها ولا يجمعها امام يقود أمرها على الرغم من هجرة نفر من كبار الصحابة الى المدينة قبل النبى صلى الله عليه وسلم كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان الا أنه لم يبعثهما بامارة أو نيابة عنه ولم يقلدهما سلطانا من قبله فظلت الدولة تنتظر بنشوئهـا حتى شرفها بمقدمه الميمون صلى الله عليه وسلم .

عهد النبى صلى الله عليه وسلم الى أهل المدينة ويهود

لمـا قدم النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأحسن أهلها استقباله ورحبوا بمقدمه الكريم اشترك فى ذلك اليهود وغير المسلمين وقال المرحوم

محمد حسين هيكل باشا فى ذلك « وقد بادر اليهود بادىء الرأى الى حسن استقبال سيدنا محمد طمعا منهم أن فى مقدورهم استمالته اليهم وادخاله فى حلفهم والاستعانة به على تأليف جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود وهم شعب الله المختار عن فلسطين أرض الميعاد ووطنهم القومى » « حياة محمد صفحة ٢١٨ » .

وحدثتنا الأخبار أن بعضهم استبطن له العداوة من أول يوم كحيى ابن أخطب وأخيه أبى ياسر . ولكنهم كتموا ذلك ولم يظهروه لأن مبرره لم يكن قد وجد بعد وللأسباب السابقة .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فما كان ليبتدر من هم أقرب للايمان من عباد الأوثان ولذلك صام يومهم يوم عاشوراء عند مقدمه الى المدينة وقال البعض ونزلت آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » (المائدة الآية ٥) فى هذه الفترة ولكن الظاهر أن هذه الآيات من المائدة نزلت فى آخر الأيام بعد أن وضعت الحرب أوزارها مع قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم» (المائدة الآية ٣) وهما من أواخر ما نزل من الدين . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر فيهم بالصفح والاحسان ليمسح بيده الكريمة جروح الأحقاد وأدرانها .

وعلى أية حال فبمقدمه صلى الله عليه وسلم الى المدينة تقبل أهلها قيادته وتكاملت بذلك عناصر الدولة الناشئة واستوفت أركانها .

فقد صار لها اقليم لتحكم فيه وتمارس سيادتها .

وشعب يدين لها بالولاء والطاعة من المسلمين وغير المسلمين .

وحكم منظم ظاهر المعالم يخضع له الناس .

وقد كان من مظاهر وجهود هذه الدولة الجديدة أنها أرسلت السرايا والبعوث حولها كسرية حمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب غزوة الابواء والأبواط والعشيرة وبدر الأولى حتى كانت بدر الكبرى .

وفي الداخل كانوا يجتمعون حول النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد الذى بناه يشرع لهم فى أمور دينهم بما أنزل الله ويتشاورون بطريقة مباشرة فى أمورهم ويقضون فى شئونهم وينفذون بطريق مباشر أيضا .

وأهم مادل على نشوء هذه السيادة وطاعة الناس لها أن النبى صلى الله عليه وسلم أصدر صحيفة فى صدر أيامه بالمدينة خاطب بها المسلمين واليهود وغيرهم من أهل المدينة .

ولا شك أن هذه الطريقة لم تكن مألوفة فى حكم جماعة متفرقة الأصل مشتتة العناصر كأهل المدينة .

اذ كان المقرر وقتها بسبب تفرق العرب وتشتتهم — ألا يلتزموا الا بالاتفاقات والعهود التى يرتضونها بارادتهم .

ولم يكن للنظم المشرعة سبيل فى اخضاع العرب وأهل الجزيرة المتفرقين وفى غير الجماعات التى تخضع لحاكم معين كاليمن وأطراف الشام وفى خارج القبيلة الواحدة التى تخضع لرئيس واحد لم تكن تجرى الأحكام بقوة السلطان وحده وبارادته المنفردة بل كانت الوسيلة الاتفاقية والمتعاهدة هما الطريق الأول للالتزام . وحتى فى بعض الجماعات من أصل واحد كمكة التى كان يسكنها أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، كانت الأمور تقرر بين بطون قريش بالاتفاق والتعاهد . فكان سادة بنى عبد مناف وبنى عبد الدار وبنى مخزوم وبنى عدى وبنى زهرة وغيرهم من قريش يجتمعون فى دار الندوة ويتشاورن فى أمورهم ولا يكون شيئا بينهم الا بالاتفاق .

فمن اتفق عليه نفذ ومن لم يتفق عليه لايلتزم .

وقد نشأ الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة واطلع على ذلك ولم يطلع على غيره فى نظم الناس . وكان أهل المدينة أكثر تشتتا من أهل مكة اذ بعضهم من بنى اسرائيل كما قدمنا والأوس والخزرج يجمعهم أصل أبعد من فهر وقد نهكتهم الحروب المتوالية بشكل لم يكن بين بطون قريش . وكانوا أكثر تنازعا على السيادة . وخاصة اليهود .

ولذلك كان المنتظر أن يعرض عليهم الاتفاق ويعمد الى جمع رؤوسهم لانفاذ العهد بموافقتهم ولكن لم يثبت لنا أنه فعل ذلك بل أصدر صحيفة منه خاطب فيها المسلمين واليهود والمشركين على السواء وألزمهم كلمته كالقانون يسرى عليهم . ولم يعترضوا على ذلك فكان ذلك — فيما أرى — من أهم دلائل نشأة دولة جديدة ذات سيادة على أهلها ونظام يفرض عليهم بقوة السلطان وحده ومن جانبه بعد أن نصبوه باستدعائه وترحيبهم به والقاء أمرهم اليه .

وقد رأى أستاذنا المستشار على على منصور (١) أن هذا الكتاب هو معاهدة بين طرفين أحدهما هو أمة المسلمين من المهاجرين والأنصار والآخر هو أمة اليهود وأنه لما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة بدأ ينظم ما بين الأمة الاسلامية وبين غيرها من الأمم المجاورة فبدأ اليهود منعا من الاحتكاك والمنازعات ، ونص فيها على التحكيم مقدما بالنص على أنه ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والرسول وبين أن أحكامها تضمنت قسمين ، قسم ينظم صلات المسلمين ببعضهم ، وقسم ينظم صلاتهم باليهود . وحلل ما تحويه فى المجال الدولى خاصة — الى تسعة عناصر ذكرها (٢) .

وانما نرجح ، أن هذه الوثيقة ليست معاهدة خالصة لأن الظاهر لنا أنها ليست اتفاقا كما بينا ، بل عملا من جانب واحد يستند الى الولاية والسلطة على أهل الصحيفة من مسلمين ويهود ، كلاهما كخاضع ، وبخاصة أن من اليهود من كان يعيش داخل المدينة ذاتها كبنى قينقاع ويؤيد ذلك ما قرره سيادته من أنها تضمنت كذلك تنظيما لعلاقة المسلمين ببعضهم (ص ٣٧٥) وتضمنت أسس القانون العام بشقيه الداخلى والخارجى

---

(١) كتابه فى « الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام صفحة ٢١٢ و ٣٧٥ وما بعدها » .

(٢) هى النصر والمساواة لمن تبع العصبة من اليهود ؛ وأن اعلان الحرب على أمة مسلمة اعلان لها على جميع الأمم الاسلامية « وان سلم المؤمنين واحدة » وانه لا نصرة لمجرم أو جان ، وانها تتضمن النص على استقلال أمة اليهود عن أمة المسلمين والمحالفة العسكرية بينهم ، واحتفاظ كل منهم بدينه وماله ؛ ووجوب التشاور قبل الحرب ، وأن الحرب لا بد أن تكون مشروعة ، وان قريشا عدو للطرفين ، التزام كل من المسلمين واليهود اجابة مايدعون اليه من صلح حفظا للسلام .

بنصها على السياسة الداخلية والخارجية لدولة الاسلام (صـفحة ٢١٢) وانها جاءت ميثاقا جمع السياسة الداخلية والخارجية للاسـلام أى قانونا عاما بشقيه الداخلى والخارجى وضمنت للأقليـات حقوقها (صفحة ٢١٥) وانما تأتى النظر الى أنها معاهدة من أمة لم يعلم تاريخيا ما اذا كانت قد حدثت باتفاق أو بعرض للولاية ومن أن الموادعة فى الاسلام تترتب على الصلح فى الأصل وهو من أنواع المعاهدات .

أما الخاضعون لهذه الدولة الاسلامية فهم بصفة عامة جميع سـكان المدينة من مسلمين وغيرهم .

وكما سنرى فان أهل الكتاب بالمدينـة لايعتبرون فى تلك الفترة من الذميين بالمعنى الذى أطلق بعد لأن الذمى يدفع الجزية بعد أن يقهر حربا ويصفى نزاعه مع الاسلام بالسيف فيتشرب احترام الاسلام . ولذلك فالذمة عقد لازم للمسلمين لايجوز لهم نقضه بأى حال من الأحوال وانمـا يجوز للذميين وحدهم أن ينقضوه ولم يكن وجود أهل الكتـاب والمشركين فى هذه الفترة فى المدينة نتيجة حرب ولم يكونوا قد ذاقوا شوكة المسلمين بعد ولم تتهذب نفوسهم على احترام الاسلام ولذا لم يكن تمردهم وفسوقهم على الاسلام أمرا مستبعدا بل كان محتملا . كما أنهم لم يكونوا يدفعون الجزية ولم تكن آية الجزية قد نزلت بعد . ولذلك فان العـلاقة التى تربط غير المسلمين بالمدينة بالمسلمين لاتعتبر علاقة ذمة بالنسبة لأهل الكتاب بل هى — فيما نرى — علاقة موادعة وهى علاقة غير لازمة للمسلمين يجوز نقضها لدى استشعارهم الخيانة منهم كما سنرى وان كانت تفيد الأمان فى موضوعها فلا تختلف فيه عن علاقة الذمة غير أنه لايؤدى جزيته .

وهذا العهد الذى عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم هو فيما نرى بالنسبة لغير المسلمين يفيد الموادعة على النحو الذى بيناه .

وقد لاحظ مؤرخون من الغرب واليهود (١) أن هـذه المعـاهدة لم تشمل أهم بطون اليهود وهم بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع وأنهـا نصت على بطون من دونهم أقل أهمية .

(١) الموسوعة الاسلامية السابق ذكرها . وكتاب ولفنستون المذكور صفحة ٤٩ وما بعدها

وزد بعضهم ذلك الى أن هذه المعاهدة كانت تشمل البطون الكبيرة فى أصلها ولكنها حرفت بعد ذلك وحــذفت منها تلك البطون . وشــكك البعض الآخر فى أصلها كلية .

والذى نراه أن هذه المعاهدة أطلقت فى عبارتها فشملت اليهود جميعا فيما أرادت أن تصرفه اليهم وهو اشتراكهم فى النفقة فى الحرب ومن عدم اجازة قريش ولا نصرها وما صرفته بعموم لفظها الى « أهل هذه الصحيفة » من الرجوع الى الله ورسوله فيما اشتجر من فســاد ولم تــكن المائدة قد نزلت بعد بما فيه من تحكيم التوراة فى شئون اليهود اذا لم يتداعوا لنــا ومن عدم اجازة قريش ولا نصرها . أما البطون التى خصصهــا فليسوا من بنى اسرائيل بل من الخزرج والأوس المتمردين وذلك تكميلا لهدفه الأول وهو توحيد هاتين القبيلتين وازالة ما بينهما من الحزازات .

وقال المرحوم حسين هيكل « حيــاة محمد » ولئن لم يشــترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع الا أنهم مالبثوا أن وقعوا بينهم وبين النبى صحائف مثلها ، ولم أقع على أن هــذه الصحيفة قد وقعت ذلك والله أعلم والاحظ أن عبارة « توقيع هذه الوثيقة قد لا تكون على تمام الدقة لأن الثابت أنه صلى الله عليه وسلم كتب لهم كتابا ولم يثبت لنا قبول أحد لها بتوقيعه . كما قدمنا

أما دعوى التحريف (١) فانها مستبعدة بعد أن أثبت ابن اسحاق هذه الصحيفة (بين ٨٥ ، ١٥٠ هجرية) فهى غير محتملة فى الاسلام لأن العلم كان ينشر على الناس كافة ولا يكتم فمنذ أن كتب ابن اسحق كتابه ونشره على الناس وحدث به الجموع فى حلقاته الزاخرة لايقوم احتمال التحريف . وانما المرد عندنا فى تقدير الحديث ووزنه بأسانيده ومصادره . ولا يكون الطعن عليه الا من هذه الناحية . وابن اسحق على ما تلناه أقل أحاديثه حسن وهو ثقة غير مجرح وليس بحجة فى الضبط والله أعلم (٢) . ولكن رأيت أن

---

(١) قد تكون هذه الدعوى مغرضة القصد منها التشكيك فى الوثائق الاسلامية وانها تعرضت للتحريف . وقد قال بها مؤرخون من اليهود .

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبى الجزء الاول صفحة ١٥٥ وقد اختــلف فى وزنه وحديثه حسن كما قدمنا .

المؤرخين العرب اعتمدوا هذه المعاهدة ولم يجرحوا أو يشككوا فى أصلها كما أنه فى الحوادث التالية لم يعترض اليهود على سابقة الاتفاق بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم بل كانت تصرفات الطرفين تدل على وجوده .

ولقد كان هذا العهد فاتحة الوحدة بين أهل المدينة من بعد ما فرقتها العداوات والحروب وحتى يعذر صلى الله عليه وسلم فيمن يخالفه من بعده لأن المؤاخذة لا تكون الا بعد التكليف وقال الله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » أى بالتبليغ والتكليف وقيل قد أعذر من أنذر .

أما نظام الحكم الذى تأسست به هذه الدولة فقد نص عليها هذا العهد أيضا فان أول ما عنى به العهد تصفية آثار النزاع الماضى وتوحيد أهل المدينة واقرار الناس على ما كانوا عليه قبل مقدمه الكريم . فنص على أن كل جماعة تكون على حالتهم التى أتى الاسلام وهم عليها ، وان عليهم دفع الديات وفداء الأسرى .

ونص العهد على وحدة أهل الايمان من أنصار ومهاجرين وتعاونهم فى الوقوف فى وجه الظالم أيا كان ، وانهم وحدة فى عهدهم وسلمهم وحربهم وان من ظلم فانما ظلمه على نفسه . ويتحمل شخصيا نتائج ذنبه ولا يتحمله معه سواه .

وأكد العهد أن المرجع فى شئونهم الى حكم الله تعالى .

ثم عرض العهد لليهود وبين أن تبع المؤمنين يكون له وأن يناصره المؤمنون مالم يكن ظالما وأن لهم دينهم وللمسلمين دينهم وأن يهود كل قبيلة من قبائل الأوس والخزرج . أى من تهود منهم وليس أصلا من بنى « اسرائيل » يعتبرون جزءا من الأمة المؤمنة .

ثم عرض العهد لما ينتظر من حرب مع قريش فنص على اشتراك اليهود والمؤمنين فى نفقاتها وفى التحالف فيها وعدم جواز التحالف مع قريش واجارتها . ونص العهد على تحريم المدينة « يثرب » فلا تجوز الحرب فيها وان من خرج منها أو قعد فيها آمن .

وهذا العهد يتضمن الأسس الأولى للحكم الاسلامى التى تجملها فيما يلى (١) :

١ — المشروعية الثابتة الدائمة وهى أهم أسس الحكم الاسلامى وأهم عناصره .

وقد وضعت الأمم الحديثة قواعد أعلى من دساتيرها وقوانينها ضمانا لهذه المشروعية الثابتة لكونها أهم ركائز السلام والاطمئنان والاستقرار الجماعى .

٢ — التكافل الاجتماعى وهو أساس النظام القانونى الاسلامى وهو مستفاد من قوله تعالى « والمؤمنون بعضهم أولياء بعض » وما جاء فى هذا العهد . وفى كفالتهم يكفلون أيضا مصالح غير المسلمين ممن يقيمون بينهم . وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فاختار لكل مهاجر من المهاجرين أخا من الأنصار كان يبذل له من ماله ومن محبته .

٣ — الحرية فى حدود الشريعة الاسلامية وهى تختلف فى مفهومها عن الحرية فى القانون الحديث . كذلك تضمن هذا العهد الملامح الأولى للعلاقات الخارجية فى دول الاسلام ، فنص على تأمين أهل الذمة المقيمين فى دار الاسلام وعلى حرب المشركين ممن يعادون المسلمين . وعلى تحريم المدينة وأمنها .

ولقد رأى البعض أن عهد النبى صلى الله عليه وسلم كان عن رغبة فى التقرب لليهود نظرا لمكانتهم الرفيعة وانه قصد القضاء على سياسة الأحياء والآطام وقد بلور اسرائيل ولفنستون هذا الرأى بقوله :

« كان يهود يثرب يتشوفون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ويعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى اسرائيل يدعو الى التوحيد وتعاليم التوراة انما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى.

---

(١) ورد فى السيرة النبوية لابن كثير الجزء الثانى ص ٣٢٠ واورده كذلك ابن هشام فى السيرة المجلد الثانى ص ١١٩ ، قال فى صحيح مسلم عن جابر .. وهو يعتبر من اهم وثائق القانون العام والدولى الاسلامى =

« ولا شك أنهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض آيات القرآن وكان لها وقع حسن فى نفوسهم جعلهم يؤملون فى هجرة النبى الى يثرب آمالا كبارا » .

« ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أو على الأقل يرجون أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل دينهم حيث يتعاونون على محو عبادة الأصنام وقد يحتمل أنهم كانوا يرجون أيضا أن يتمكن الرسول من التأليف بين البطون البشرية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التى كانت فى حاجة شديدة الى الهدوء والسكينة وكانوا يعتقدون أنه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ولتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها » .

« وكذلك كان الرسول يرغب فى التقرب من بنى اسرائيل نظرا لمكانتهم الرفيعة من الوجهة الأدبية والمالية والسياسية فى البلاد الحجازية ويعتقد أن اليهود يدخلون فى ذمته بلا مقاومة بل ويرحبون بدعوته التى تشبه فى جوهرها دعوة الآباء الأقدمين من بنى اسرائيل » .

ونلاحظ على ما قرره من أن اليهود كانوا يطمعون أن يتعاونوا على محو عبادة الأصنام أنه يجنح فيه الى أسلوب الالتواء الذى طالما تذرعت به الأمم المستعمرة فى علاقاتها بالشعوب المغلوبة على أمرها فعبارتا التعاون

= وقد جاء نص العهد بما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبى الامى بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم امة واحدة من دون الناس • المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالتهم التى أتى الاسلام وهم عليها) يتعاقلون بينهم (أى يدفع كل منهم عن الآخر الدية) وهم يفدون عانيهم (الأسير منهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف (من الانصار) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم (من العقل وهو الدية) وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة (من الانصار) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو الحرث (من الانصار) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين • وبنو عمرو بن عوف (من الانصار ايضا) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النبيت (من الانصار) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الاوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين •

وان المؤمنين لايتركون مفرحا (مثقلا بالدين والانفاق) بينهم ان يعطوه بالمعروف فى فداء او عقل =

على النهوض بهذه المدينة والتعاون على محو عبادة الأصنام ونحوها تذكرنا كثيرا بصكوك الانتداب والوصاية ونحوها . وهى ذرائع واهية لأن اليهود لم يظهروا قبلها ولا بعدها أى غيرة على محو عبادة الأصنام بل على العكس كانوا يغلقون أبواب التهود فى وجه الأوس والخزرج . كما لم يظهروا أى دافع نحو النهوض بهذه المدينة الا من حيث مصلحتهم الشخصية ونماء ثرواتهم أما من حيث مصلحة الأوس والخزرج فلا نزاع فى أنهم عمدوا الى الزامهم الحضيض ما أمكن واثارة الحروب بينهما حتى يأمنوا عدم تقدمهما فى الحياة .

وأما أنهم كانوا متشوفين لرؤية النبى صلى الله عليه وسلم أو أنهم كانوا يعقدون عليه الآمال الكبار فالله أعلم به حيث لم تبد له أية بادرة مادية تثبته وربما وجد ما يضحده ولكنها تصرفات فردية لا نقول انها تعبر عن اتجاههم .

وكذلك ليس ما يدل على أن الرسول رغب فى التقرب منهم بالذات لمكانتهم الرفيعة . لو كان ذلك لقصدهم وحدهم بالحسنى ولكنه فتح ذراعيه

= ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم او ابتغى دسيعة من ظلم (عظيمة) او اثم او عدوان او فساد بين المؤمنين وان ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد احدهم ؛ ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر . ولا ينصر كافر على مؤمن .

وان ذمة الله واحدة يجير عليهم ادناهم .

وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وان سلم المؤمنين واحدة ؛ لايسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله الا على سواء وعدل بينهم .

وان كل غازية غزت يعقب بعضها بعضا .

وان المؤمنين يبىء (يمنع ويكف) بعضهم بعضا بما نال وما آذاهم فى سبيل الله ؛ وان المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

وانه لايجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن وانه من اعتبط (قتل) مؤمنا عن بينة فانه قود به الا ان يرضى ولى المقتول وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه .

وانه لايحل لمؤمن اقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ان ينصر محدثا ولا يؤويه (أى عاملا لشر أو مخالف العهد بأمر يستحدثه) وانه من ينصره أو يؤويه فان عليه =

لمن يريد الله وقلبه لأهل المدينة كلها كافة من يهـود وأوس وخـزرج بلا تفريق للحق وحده .

وانما اقتضى حسن السياسة أن يبدأ عهده بالملاينة والسلام مع الجميع اذ ليس بينهم سابقة ما يوجب العداء أو غير الود والتراحم .

وكذلك فكما قدمنـا يتعين فى التشريع أن يسبق الاعـذار التكليف فيصدر المشرع أمره أولا ثم يحاسب الناس على مخـالفته . لقوله تعـالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » يعنى من الانذار والتكليف وقد أعذر من أنذر .

= لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل (يعنى مقابل كدية أو غيره مما يعادل خطيئته) وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم .

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وان يهود بنى عوف امة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وانفسهم الا من ظـلم واثم فانه لايوتغ (يهلك) الا نفسـه واهل بيتـه وأن ليهـود بنى النجـار مثل ماليهود بنى عوف وان ليهود بنى سـاعدة مثل ما ليهـود بنى عوف وان ليهود بنى جشم ماليهود بنى عـوف وان ليهـود بنى الاوس مثل ماليهـود بنى عوف وان ليهود بنى ثعلبة مثل ماليهود بنى عوف الا من ظلم فانه لايوتغ الا نفسه واهل بيته . وان جفنة بطن من ثعلبة كانفسهم وان لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف وان البـر دون (قبل) الاثم وان موالى ثعلبة كانفسهم وان بطانة يهود كانفسهم وانه لايخرج منهم احدا الا باذن من محمد صلى الله عليه وسلم .

وانه لاينحجز على ثار جرح .

وانه من فتك فبنفسه فتك واهل بيته الا من ظلم .

وان الله على ابر هذا .

وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .

وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة (اى يتحالفون ضد من حاربه)

وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون (قبل) الاثم .

وانه لم يأثم امرؤ بحليفه (لايحتمل ذنبه) .

وان النصر للمظلوم (يعنى لايقوم لنصرته الا اذا كان مظلوما) .

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة .

وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .

وانه لاتجار حرمة الا باذن اهلها .

وانه ماكان بين اهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم =

فاذا جاء العهد وجعل اليهود على رمتهم أى على حالهم قبل الهجرة للمدينة ونص على ماجاء فيه من التحالف والتكامل فان ذلك أمر طبيعى لا غرابة فيه بل كانت الغرابة فى غيره . ولا يحتمل هذا التأويل الذى استخرجه منه الدكتور ولفستون وشايعه فيه كثير من مؤرخى الغرب الذين يجعلون تطورات سياسة النبى صلى الله عليه وسلم عن باعث الظروف وعن قريحته واجتهاده وليس عن وحى السماء وأمرها .

أما قوله انه قصد القضاء على سياسة الاحياء والآطام فى المدينة فنراه حسنا ونؤيده فيه .

= وان الله على اتقى مافى هذه الصحيفة وابره .

وانه لاتجار قريش ولا من نصرها .

وان بينهم (بين المذكورين فى هذا العهد) النصر على من دهم يثرب واذا دعوا لصالح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين ؛ على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وان يهود الاوس مواليهم وانفسهم على مثل ما لاهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصفحة .

وان البر دون الاثم .

لايكسب كاسب الا على نفسه (يعنى لايسأل غيره عن عمله) وان الله على اصدق مافى هذه الصحيفة وابره .

وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم .

وانه من خرج أمن ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وأثم .

وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الفصل الرابع
حروب النفاق

«... وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ»

قرآن كريم

النفاق هو شر ما تقابل به المبادىء وأخطر ما يهدد استقرارها ورسوخها في النفوس . وحرب النفاق هي أدق الحروب وأحوجها الى التدبر وحسن السياسة والأناة في الوقت الذى تحتاج لسرعة الحسم والقمع . فهى تحتاج الى التروى من ناحية وللحزم والسرعة من ناحية أخرى وبين النقيضين يتبين ما يلاقيه المؤمنون من عناء هذه الحرب ودقة علاجها وخطرها على المبدأ .

وذلك بأن المنافقين يظهرون بمظهر الصداقة والغيرة على مبدأ ويلبسون الحق بالباطل ويتحاملون حتى تتجه الأمور وجهتها الصائبة وينفشون الذعر والدعوة الى الهزيمة في المناسبات ويرددون الاشاعات والأقاويل ويهولون في النتائج ويثبطون ويرجفون وينذرون بالثبور ويشيعون القلق في النفوس فيستشرى خطرهم وتجد أساليبهم ودعاويهم صداها في نفوس الضعاف ممن لم تتملك المبادىء قلوبهم وحديثى العهد بها فينفضون عنها وينضمون الى المرجفين أو يتذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء .

ولقد واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب هجرته الى المدينة حربا من النفاق من أعنف ما عرفه التاريخ من حروب النفاق بعد أن أنجاه الله من معركة الكفر في مكة . وكان قوادها سادة حروب التهويل والدعاية وقادتها في جميع العصور بنو اسرائيل .

وظاهرهم في ذلك لفيف من ذوى الأغراض وممن استحكم الاثم في قلوبهم من الأوس والخزرج . فكانوا عونا على التأليب على الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ومحاولة احباط الاسلام والقضاء عليه وهدمه .

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة لم يكن الاسلام قد رسخ في قلوب الانصار بطبيعة الحال ولم يكن قد تمكن من قلوب غالبيتهم

لأنهم كانوا حديثي عهد بالاسلام ولما يدخل الايمان فى قلوبهم . ولم يكونوا قد خالطوا النبي صلى الله عليه وسلم وخبروا دقائق تعاليمه بعـد . ولذلك فقد عمد اليهود أول ما عمدوا الى الارجاف حول الاسلام بالتشكيك فيما جـاء به لتفنيده وتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم وتنفير القـلوب بذلك وصرفها عن الايمان . وقاموا بذلك أحيانا متظاهرين بسذاجة المتسائل البرىء واحيانا بتحدى اهل العلم منهم ودهاقيته . فجلسوا فى حلقات رسـول الله صلى الله عليـه وسلم ومسـجده يفاجئونه بين الفينة والأخرى بمـا يوقع الاضطراب فى النفوس ويزعزع عقيدتهم .

وذلك كسؤالهم : هذا الله خلق الناس فمن خلق الله ؟ وتارة أخرى توجه اليه أسئلة الاختبار كسؤالهم عن أهل الكهف والروح وذى القرنين وكثير من المسائل الدقيقة .

ولا شك أن المناقشات الجدلية هى أخطر ما تقابل به المبـادىء لأن الحديد بالحديد يفل . واذا دخلت قضية المبدأ فى المجـادلة والمناقشة فان ذلك قد يؤدى الى تمويته وصلته بالقلوب فيمس مواضع الداء من القلوب قبل شفائها ويغزوها الزيغ قبل تمام التحصن .

وعلى الرغم من ان النبى صلى الله عليه وسلم قابل اليهود بما قدمنا من الحسنى ، وجاملهم واظهر احترامه لهم الا أنهم جابهوه بحرب شعواء من الاسئلة المغرضة التى قصدوا بها التشكيك فيه .

وكان اليهود يتعمدون السخرية من رسول الله صلى الله عليه وسلم .فكانوا يلوون ألسنتهم عند خطابه فيقولون له : « راعنا » وظاهرها نظرنا ومقصدهم يعنى ياراعن وهو الاحمق الأرعن . وكانوا يحيونه بالدعاء عليه فقد ورد فى الصحيح عن عائشة رضى الله عنها قالت دخل رهط من اليهود على رسـول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا السـام عليك ففهمتها « يعنى الموت عليك » فقلت عليكم السـام واللعنة فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم مهـلا يا عائشة فان الله يحب الرفق فى الأمر كله . فقلت يا رسول الله او لم تسمع ماقالوا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد قلت وعليكم . وورد عن

عبد الله بن عمر ما فى معناه بل تمادى اليهود فى عداوتهم بأساليب لايقرها دين ولا شيء مقدور ، ورد عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من زريق يقال له لبيد الأعصم حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل اليه أنه يفعل الشيء وما فعله حتى اذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عند ى لكنه دعا ودعا ، ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته :

أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل ؟ فقال مطبوب . قال من طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم قال فى أى شيء ؟ قال فى مشط ومشاطة (ما يخرج من الشعر فى المشط) وجف طلع نخلة ذكر . قال وأين هو ؟ قال فى بئر ذروان . فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناس من اصحابه فجاء . فقال يا عائشة كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن نخبها رؤوس الشياطين . فقلت يا رسول الله : افلا استخرجته (فاستخرجه . وفى رواية فلم يستخرجه) قال قد عافانى الله فكرهت أن أثور على الناس فيه شرا فأمر بها (البئر) فدفنت (١) .

وليس من السهل ان نهون منخطر هذه الحرب الباردة وخبيث القصد منها . فان النبى صلى الله عليه وسلم قضى ثلاث عشرة سنة فى مكة يعانى اضطهاد قريش وعنتهم حتى اضطر لى أن يعرض نفسه على القبائل وحتى اضطر الى ان يخرج من مكة وحيدا فريدا مطاردا بعد ان هاجر بعض صحبه الى الحبشة وبعضهم الى المدينة . فما يكاد يستقر له الأمر ويفتح الله له وجهه ويهيء الارض الطيبة التى يبذر فيها بذور دعوته الصالحة حتى اقبل اليهود يعبثون فى زرعه ويبذرون فيها بذور الفتنة والشيطان حتى يخرجه أهل المدينة فيها ويعود مطاردا بعد ان فقد مقامه الأول بقريش .

ومثل هذه الحروب الشعواء سماها مؤرخو اليهود (اسئلة بريئة أو علمية بغرض البحث والاستقصاء) وان كانوا يعترفون بما فيها من التعنت

---

(١) احاديث واردة فى صحيح البخارى . كتاب الطب - ابواب الشرك والسحر من الموبقات وماسبقها .

ولقد قال ولفستون فى كتابه عن تاريخ اليهود (١) انه بعد ثمانية عشر شهرا من الهجـرة تلبد الجويين اليهـود والنبى بسبب المشاحنات العلمية المتبادلة والاحتكاك بين المسلمين فى الشوارع . وأنه عند ذلك بدأ القرآن يذكر بما ارتكبه اجدادهم من الجرائم . ونجم عن ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوما بعد يوم وشعر النبى انه لم يوفق الى النجـاح فى تحقيق الفكرة التى كان يسعى اليها من تأليف قلوب اليهود والعرب وايجاد أمة مؤلفة من جميع العناصر . وانه بعد هـذا الخصام ظهـر فى القرآن ما يسمى بالنسخ ونزلت آية (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) . وحولت القبلة من بيت المقدس الى الكعبة .

وقرر أن بعض العنـاصر المعتـدلة من اليهود كعبد الله بن سـلام ومخيريق حاولت التوفيق بين الطرفين ولكن المنافقين أمثال عبد الله بن أبى زادوا النار اشتعالا وجعلوا يوقعون بين اليهود والنبى صلى الله عليه وسلم .

ونراه فى ذلك يدخل على الحقائق تحويرات تقلبها رأسـا على عقب فقوله : (محاورات علمية متبادلة بين الطرفين) يوحى بأن اليهود ليسوا وحدهم المسئولين عن هذه المحاورات وانما يسأل عنها المسلمون كذلك . وانها لم تنشأ بسوء نية من اليهود بل اعتباطا بين الطرفين . اما قوله انه بعد هذه المناقشات تبدل اتجاه القرآن وظهر فيه ما ذكره فهو ينم عن انه يرى انه ليس من عند الله وانما يوجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يشـاء . وهى تهم قاسية كنا لا نود أن يصدرها رجل عاش فى مصر طويلا وصحب فضلاءها . والواقع ان القرآن لم يكثر من التعرض لليهود من قبل فيما نعلم حتى يحتاج للتذرع بالنسخ ولم يسبق ان كال المديح لليهود أو ذكر حسنات آبائهم وانما نزلت سورة الأعراف وغيرها بمكة وفيها سيئاتهم . أما دعواهأن المنافقين هم الذين ألبوا اليهود على المسلمين فهو انحراف ظاهر بالوقائع لأن المعلوم ان التهمة شائعة بينهما ورافقت تصرفات كل منهما طرف الآخر وبخاصة لوجود مخالفات فى الجاهلية بين الأوس وبنى النضير وبنى قريظـة وبين الخزرج وبنى قينقاع .

---

(١) صفحة ١٢٣ وما بعدها .

ويعود ولفستون (١) فيحور ظاهرة مؤكدة فى السيرة وهى تأثير نتائج الغزوات فى المنافقين فقد تأكد انه اذا انتصر المسلمون اغتم اليهود والمنافقون وركبهم الذعر ، واذا هزموا اغتنموا الفرصة للاحاطة بهم والاجهاز عليهم وأظهروا الفرح والشماتة .

فبعد انتصار المسلمين فى غزوة بدر اظهر المنافقون واليهود حقدا لا مثيل له وبعد أن كانوا يتكتمون حقدهم أبرزوه فجعلوا ينثرون الأشعار الوقحة بالغزل بنساء المسلمين والتحريض العلنى على المسلمين والتحرش بهم .

ويدل على ذلك انه ارسل النبى صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة على ناقته القصواء بعد النصر ليبشر الناس بما أنعم الله به على المسلمين فلم يصدق اليهود والمنافقون ذلك وقالوا انما محمد قد مات وهزم المسلمون والا فما بال زيد بن حارثة قد أتى على القصواء . وقال انهما يهرفان بما لايعقلان من هول الهزيمة . فلما تبين لهم ان ذلك كان حقا وانه قتل من اشراف قريش وصناديدها من قتل طار لبهم واستشاط غضبهم فاظهروا العداوة مما أدى الى اخراج بنى قينقاع من المدينة وقتل كعب بن الأشرف .

ولكن ولفستون يستطرد قائلا (٢) انه : كان الأمل أن يرجع الحالة بين اليهود والعرب على ما كانت عليه لولا انتصار العرب فى بدر فاصبحوا أصحاب الأمر والنهى وشرعوا يأخذون بالثأر من الأفراد والجماعات وطعنت فى اعراضهم وكان النبى يأمل ان يدخل اليهود الاسلام بطريق المجادلة فلم ينجح فدخل معهم بعد بدر والظروف ملائمة فى حرب . لذلك ظهرت عند الانصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جلية حيث صمموا على أحد أمرين أن يندمج اليهود مع العرب بواسطة اعتناق الاسلام أو يحاربوهم ويجلوهم وقد عرض ولفستون رأيه عن المهاجرين فقال : انهم كانوا تواقين الى هذه الحروب وينتظرونها بفروغ الصبر لأن حالتهم كانت سيئة جدا ، أى كانوا ينتظرونها كفرصة للسلب والنهب .

---

(١) كتابه تاريخ اليهود المرجع السابق صفحة ١٢٣ وما بعدها .
(٢) تاريخ اليهود فى الجاهلية وصدر الاسلام صفحة ١٢٧ .

وهذا الكلام ظاهر البطلان فلم يكن السبب فى سوء العلاقات هو لهو السيادة والاسلام بل مجاهرة اليهود بالعدوان . ولم يكن المسلمون هم الذين يطعنون فى أعراض اليهود بل كانت اليهود هى التى تطعن فى أعراضهم كما سنرى فى قصة كعب بن الاشرف . ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى يسعى لاقناع اليهود بالجدل بل كانوا هم الذين يثيرون الجدل وهو يتولى الرد عليه .

وعلى اية حال فانه بعد ما اظهره اليهود والمنافقون من الغل والمجاهرة بالعداوة بعد بدر ، والتى قال عنهـا : (ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) « آل عمران الآية ١٢٠ » فانه لما انهزم المسلمون فى أحد أظهروا من الشماتة مالا مزيد عليه . وجعلوا يستهزئون بالمسلمين ويقولون : (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) « آل عمران الآية ١٥٦ » وأدى ذلك الى أن فقد المسلمون هيبتهم لا فى المدينة وحدها ولكن فيمـا جاورها فاعتدى عليهم العرب من بنى أسد وهذيل وبنى سليم وقتلوا من أرسلهم النبى صلى الله عليه وسلم لتعليمهم الدين فى يوم الرجيع ويوم بئر معونة . وتآمر يهود بنى النضير على قتل النبى صلى الله عليه وسلم بأن يلقوا عليه حجرا وهو جالس الى جدار ، فأمر باخراجهم وفى ذلك يقرر المرحوم محمد حسين هيكل باشا (١) انه كان لابد للمسلمين بعد أحد منأن يستردوا مكانتهم . وأنه صلى الله عليه وسلم بعد أحد شعر بالحرج وحرص على أن يتقصى أخبار أهل المدينة والعرب على ما يمكنه من استعادة مكانة المسلمين وسطوتهم وهيبة نفوسهم وانه بعد ما أصاب المسلمين بالرجيع وبئر معونة اشتد ساعد اليهود والمنافقين قال : (وفكر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحيلة تفكير السـياسى الدقيق بعيـد النظر فليس من شىء أشـد على المسلمين يومئذ خطـرا من أن يضـعف نفوس مسـاكنيهم بالمدينـة هيبتهم وليس ما يطمع قبائل العرب فيهم أكثر من ان تشعر بهذا الانقسام) وبين انه لذلك اضطر الى اجلاء بنى النضير عن المدينـة لخطرهم عليه فى مأمنهم جوارها .

---

(١) حياة محمد صفحة ٢٩٣ ، ٢٩٥ و ٣٠٠ وما بعدها .

وعلى أية حال فان اجلاء بنى قينقاع أدى الى انهاء معركة الجدل العلمي وسكت اليهود عن اثارة المناقشات الجدلية التى كانوا يستهدفون بها تخلخل العقيدة الاسلامية فى قلوب الأنصار وافسادها .

كما أن اجلاء بنى النضير أوقع الرهبة فى قلوب المنافقين وانتهت بذلك معركة النفاق بعد أن أبعد محركوها من اليهود نهائيا من المدينة وتخومها وخاف منافقو الأوس والخزرج أن يظلوا من بعدها فى مناوراتهم ولم يعد يعرف عنهم الا التخلف عن الخزرج فى الغزوات ولم يبق أمام النبى صلى الله عليه وسلم الا أن يحسم بالسيف أمر اليهود الذين تظاهروا عليه مع أعدائه من قريش والأحزاب .

بعض ما نزل فى المنافقين : ولارتباط اليهود بالمنافقين وتظاهرهم على الاثم والعدوان ولخطر المنافقين على الجماعات فى جميع الظروف ، رأيت أن أسترجع بعض ما قاله الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيهم موعظة وذكرى.

قال الله تعالى فيما أبداه المنافقون بعد بدر « يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور . ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط » « آل عمران الآيات ١١٨ وما بعدها » .

وقال فيمن يقعد من المنافقين مع اليهود يستهزئون بالقرآن ويخوضون فيه .

« بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة ؟ فان العزة لله جميعا وقد نزل عليكم فى الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره انكم اذن مثلهم ان الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله

قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا ؟ ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . الا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما « النساء الآيات ١٣٨ وما بعدها » .

وقال الله تعالى « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » « التوبة الآيات ٦٧ وما بعدها » .

وقال كذلك « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير . يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهموا بما لم ينالوا ومانقموا الا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فان يتوبوا يك خيرا لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير » (التوبة الايات ٧٣ومابعدها) وقد نزلت فى الجلاس بن سويد .

ومما نزل فى منافقى الأعراب قوله تعالى « الأعراب « البدو » أشد كفرا ونفاقا « من أهل الحضر » وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما « يعتبره خسارة » ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ومن الأعراب من يؤمن بالله » « التوبة الآيات ٩٧ ومابعدها » « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم » .

وكذلك جاء ذكر المنافقين فى سورة المنـافقين وغيرها والله أعلم حيث كان ذلك .

حرب الجـدل العلمى

ولتوضيح صورة حوادث النفاق فى المدينـة نسوق ماكان من حرب الجدل العلمى ، وقد بدأت هذه الحرب قبل الهجرة فقـد روى أن اليهود بعثوا الى قريش أن اسألوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عن الكل أو سكت عن الكل فليس بنبى وان أجاب عن البعض وسكت عن البعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة فقدموه مع سؤالهم (١) .

قال ابن اسحق (٢) فيما بلغه أنه فى أحبار اليهود والمنافقين من الأوس والخزرج نزل صدر من سورة البقرة الى المـائة منها . وفى تفسيره لها أن نفرا من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقالوا يامحمد أخبرنا عن أربع نسألك عنها فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقننى ؟ » قالوا نعم قال « فاسألوا عما بدا لكم » قالوا فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه وانما النطفة من الرجل قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتهما غلبت صاحبتها كانت لها الشبه . قالوا اللهم نعم . قالوا فأخبرنا كيف نومك فقال أنشدكم بالله وبآياته عند بنى اسرائيل هل تعلمون ان نوم الذين تزعمون أنى لست به « أى النبى المنتظر » تنـام عينه وقلبه يقظان فقـالوا اللهم نعم . قال « فكذلك نومى تنـام عينى وقلبى يقظان » قالوا فأخبرنا عما حرم اسرائيل على نفسه . قال أنشـدكم الله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب اليه ألبان الابل ولحومها وانه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب

(١) تفسير القرآن للنسفى على آية ويسألونك عن الروح ـ الجزء الثانى صفحة ٢٦٥
(٢) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٥٢ وما بعده

اليه شكرا لله فحرم على نفسه لحوم الابل وألبانها » قالوا اللهم نعم . قالوا فأخبرنا عن الروح قال « أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل هل تعلمون جبريل هو الذى يأتينى قالوا اللهم نعم ولكنه يا محمد لناعدو وهو ملك انما يأتى بالشدة وبسفك الدماء لنا ولولا ذلك لاتبعناك . قال ما نزل الله عز وجل فيهم « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » الى قوله تعالى « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » (سورة البقرة الآيات ٩٧ وما بعدها) .

وقال ابن اسحق وكان فيمن نزل فيهم القرآن خاصة من الأحبار وكفار يهود الذين كانوا يسألونه ويتعنتون ليلبسوا الحق بالباطل .

فيما ذكر لى عبد الله بن عباس لجابر بن عبد الله بن رئاب أن — أبا ياسر بن أخطب مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة البقرة « ألم ذلك الكتاب لاريب فيه » وقد أورد ابن اسحاق تفسيرا لها فى مناقشاتهم .

وكان اليهود يبدلون كلام الله بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغيرون الحقائق وقد روى البخارى(١) عن عبد الله بن عمر أن اليهود جاءوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلا وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم فقالوا نفضحهم ويجلدون قال عبد الله بن سلام كذبتم ان فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفع يده فاذا فيها آية الرجم قالوا صدق محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما . فرأيت الرجل يحنى على المرأة ويقيها الحجارة (وفى رواية يحنأ عليها) وعن أبى هريرة رضى الله عنه (٢) قال لما فتحت خيبر أهديت للنبى صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فقال النبى صلى الله عليه وسلم أجمعوا الى من كان هنا من

---

(١) انظر كذلك سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٩٣ .

(٢) صحيح البخارى — كتاب الطب باب مايذكر فى أسم النبى صلى الله عليه وسلم (نسخة السندى جزء ٤ صفحة ٢٢) .

يهود فجمعوا له فقال انى سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقى عنه ؟ قالوا نعم قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم من أبوكم ؟ قالوا فلان قال كذبتم بل أبوكم فلان قالوا صدقت . قال فهل أنتم صادقى عن شيء ان سألت عنه فقالوا نعم يا أبا القاسم وان كذبنا عرّفت كذبنا كما عرفته فى أبينا فقال لهم من أهل النار ؟ قالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال النبى صلى الله عليه وسلم اخسأوا فيها والله لانخلفكم فيها أبدا . ثم قال هل أنتم صادقى عن شيء ان سألتكم عنه فقالوا نعم يا أبا القاسم قل هل جعلتم فى هذه الشاة سما قالوا نعم قال ما حملكم على ذلك قالوا أردنا ان كنت كاذبا نستريح وان كنت نبيا لم يضرك .

وقال ابن اسحق ، وقال مالك بن الضيف أحد بنى اسرائيل حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق وماعهد الله اليهم فيه ، والله ماعهد الينا فى محمد عهد وما أخذ علينا من ميثاق فأنزل الله « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لايؤمنون » (البقرة الآية ١٠١) وقال ابن صلوبا الفطيونى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك لها فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله « ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها الا الفاسقون » (البقرة الآية ٩٩) .

وقال رافع بن حريملة ووهب بن زيد وهو أحد اليهود أيضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك فأنزل الله تعالى « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل » (البقرة الآية ١٠٨) نقول وهذا غير نازل فى الأعراف والشعراء.

وقال المرحوم حسين هيكل باشا (١) انه قدم فى هذه الأثناء وفد من الأنصار النصارى من نجران عدتهم ستون راكبا فناقشهم النبى صلى الله عليه وسلم حتى أفحمهم ودعاهم للملاعنة (آل عمران الآية ٦١) فأبوا وتنازعوا

---

(١) حياة محمد صفحة ٢٣٢ .

مع اليهود فى أشياء وحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن اسحق فقال رافع بن حريملة (من أحبـــار اليهود) ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالانجيل . فقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله تعـــالى « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصـــارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب » (البقرة الآية ١١٣) .

وقال رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يامحمد ان كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه . فأنزل الله « وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » (البقرة الآية ١١٨) (١) .

وقال عبد الله بن صورى الأعور الفطيونى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى الا ما نحن فيه فاتبعنا يامحمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفـــا وما كان من المشركين » (البقرة الآيات ١٣٥ وما بعدها) .

وذكر مانزل من الآيات عنـــد تحويل القبلة وقوله تعالى : (ســـيقول السفهاء) البقرة الآيات ١٤٢ وما بعدها .

ودخل النبى صلى الله عليـــه وسلم على بعض اليهود فى بيت المدارس « بيت عبادتهم » فقـــال له بعضهم على أى دين أنت يا محمد قال على ملة ابراهيم ودينه قالوا ان ابراهيم كان يهوديا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « فهلم الى التوراة فهى بيننـــا وبينكم » فأبوا ذلك وأنزل الله عليـــه « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتـــاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » (آل عمران الآية ٢٣) .

وغير ذلك مما روى عن فنحاص اليهودى وعبد الله بن حنيف وأبو نافع القرظى وغيرهم من أحبار اليهود . ممن أكثروا الجدل فنزل فيهم آيات البقرة وآل عمران والنساء والمائدة .

ولما خرج المسلمون الى غزوة مؤتة واستعمل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة قال « ان أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس

---

(١) أنظر فى ذلك وفيما بعده من مناسبات النزول : سيرة ابن هشام المجـــلد الثانى صفحة ١٥٢ و ٢٠٧ وما بعدهما وتفسير النسفى للآيات المذكورة .

فان أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فان أصيب عبد الله بن رواحة فليؤمروا عليهم من شاءوا » قال اليهود ما هو بنبى وما هذا شأن الأنبياء فى كلامهم . لأن الأنبياء كانت لاتقول ذلك الا اذا كان مستقتل من سمى لهم خلفاء . وكان ما أخبر به رسول الله صلى الله عليهوسلم فقتل زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة فاختار الناس خالد بن الوليد ونصر الله المسلمين على يديه .

اثارة الفتن بين المسلمين

ولما أعيت اليهود حرب الجدل العلمى ولم يخرجوا منها بطائل لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحاجهم بالتوراة ويظهر عليهم عمدوا الى محاولة الوقيعة بين المسلمين .

من ذلك ما رواه بن اسحق (١) من أنشاس بن قيس ، وكان شيخا قد عسا « استعصى » عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم مر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاوس والخزرج فى مجلس جمعهم يتحدثون فيه فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فىالجاهلية فقال قد اجتمع ملأ بنى قيلة (يعنى الجماعة من أولاد قيلة وهى أم الانصار التى ولدت الأوس والخزرج) بهذه البلاد لا والله مالنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار « فأمر فتى شابا من يهود كان معه فقال اعمد اليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعاث » (وهى المعركة التى كانت بين الأوس والخزرج قبيل الهجرة ومر ذكرها) قال ابن اسحق يوم اقتتلت فيه الاوس والخزرج وكان الظفر فيه يومئذ للاوس على الخزرج وكان على الأوس يومئذ حضير بن سماك الاشهلى أبو أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى فقتلا « يعنى حضير وعمرو » قال ابن اسحق ففعل (أى جاء الشاب اليهودى فأوقع بين الفريقين من الأنصار) فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب اوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن الحرث من الاوس وجبار بن صخر أحد بنى سلمة

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٨٣ .

من الخزرج فتقاولا الرأى (تبادلا الكلام فى الفخر ونحوه) ثم قال أحدهما لصاحبه ان شئتم رددناها « أى الحرب » الآن جذعة (أى فى قوتها وشبابها) وغضب الفريقان جميعا وقالوا قد فعلنا (أى أجبناكم للحرب) موعدكم الظاهرة (مكان) السلاح السلاح فخرجوا اليها « الى الظاهرة » فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال « يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للاسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم » فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس فأنزل الله تعالى فى شاس بن قيس « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » (آل عمران الآية ٩٨ وما بعدها) قال وأنزل فى أوس بن قيظى وجبار بن صخر ومن كان معهما من قومهما « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم . الى قوله . وأولئك لهم عذاب عظيم » (آل عمران الآيات ١٠٠ وما بعدها) .

نفر من احبار اليهود اسلموا نفاقا

قال ابن اسحق (١) وكان مما تعوذ بالاسلام ودخل فيه مع المسلمين وأظهره وهو منافق من أحبار اليهود من بنى قينقاع أسعد بن حنيف وزيد ابن اللصيت ونعمان بن أوفى بن عمرو وعثمان بن أوفى .

قال وزيد بن اللصيت هو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لايدرى أين ناقته فقال

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٤٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما أعلم الا ماطلمنى الله وقد دلنى الله عليها فهى فى هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكما وصف .

قال ومنهم رافع بن حريملة وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مات « قد مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » .

ورفاعة بن زيد بن التابوت وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هبت الريح يوم موته « لاتخافوا فانما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار » فلما قدم للمدينة وجد أن رفاعة مات ذلك اليوم الذى هبت فيه الريح .

وقال منهم سلسلة بن برهام وكنانة بن صوريا .

وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويسخرون بدينهم . فاجتمع يوما فى المسجد نفر منهم فرآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخرجوا من المسجد اخراجا عنيفا .

خبر عبد الله بن أبى بن سلول

وكان ممن خالف اليهود فى نفاقهم ونزلت الآيات فى نفاقه وهو من بنى عوف من الخزرج ثم أحد بنى الحبلى وقال ابن اسحق (١) ولا يختلف عليه فى شرفه من قومه اثنان . ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين حتى جاء الاسلام .

وقد كان له شأن فى الجاهلية فقد كان على الخزرج يوم الفجار الأول. كما جاء فى يوم بعاث كما قدمنا أنه لم يشترك فى المعركة ووقف ينتظر نتيجتها وتشفى فى قائد الخزرج لما قتل فى ذلك اليوم كما ذكرنا من قبل .

وكان له اطم « حصن » اسمه مزاحم .

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ٢١٦ ومابعدها .

ونظرا لما له من السيادة وما اتصف به من التدبير وان كان عن خداع ولؤم فقـد اتفقت كلمة الأوس والخزرج على أن سولوه ملكا عليهما قبل الهجرة .

ويبدو أن النفوس لم تكن فى قرارتها مرتاحة لذلك الحل لما عرف عنه من صفات لايؤمن جانبه معها ولذلك فقد اتجهت النفوس وركضت مسرعة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقت اليه الزمام ، وضاعت الفرصةبذلك على عبد الله بن أبى .

ولذلك كان من الطبيعي أن ينفس عبد الله على رسول الله صلى اللهعليه وسلم ولايجد الايمان به الى نفسه سبيلا .

ويبدو أن حلم الملك ظل يراود عبد الله طوال حيـاته وظل يبذر بذور الشقاق والوقيعة على هذا الأمل .

ودخل عبد الله بن أبى الاسلام بعد أن رأى أكثر قومه يدخلون فيـه ولكنه مستبطن عداوة الاسلام واثارة الفتن .

ومن نفاقه أنه كان يقدم كل جمعة عقب الصلاة يدعو الناس أن يلتفوا حول النبى صلى الله عليه وسلم ويحسب بذلك أنه يدارى نفـاقه ويستره . ولايعلم المنافق أن المبالغة فىذلك تزيد نفاقه ظهورا وتجمله كالعجوز المتصابية التى تزيد قبحا فى ثيابها المبهرجة وزينتها الفاقعة وتزواتها الماسخة . حتى منعه الصحابة من كلمته .

ومن كراهته للنبى صلى الله عليه وسلم أنه روى أن رسول الله صلى الله عليهوسلم مر عليه وهو فى ظل أطمه (حصنه) مزاحم وحوله رجال من قومه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم كره أن يجاوزه حتى ينزل عن دابته فنزل وجلس قليلا فتـلا القرآن ودعا الى الله عز وجل وذكره وحذر وبشر وأنذر وعبد الله بن أبى ساكت لايتكلم حتى فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من مقالته فقال « يا هذا انه لا أحسن من حديثك هذا ان كان محقا فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحـدثه اياه ومن لم يأتك فلا تفتـه به ولا تأته به فى مجلسه بما يكره منه » فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متوجهـا

الى سعد بن عبادة يعوده فى مرضه ، فدخل على سعد وفى وجهه ماقال عبدالله ابن أبى فقــال سعد يارسول الله انى لأرى فى وجهك شــيئا لكأنك سمعت شيئا تكرهه فقال (أجل) ثم أخبره بما قال ابن أبى فقال سعد «يارسول الله أرفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وانــا لننظم له الخرز لنتوجه » وانه يرى أن قد سلبته ملكا » .

وعبد الله بن أبى كان حليفا لبنى قينقاع ــ يهود بالمدينة ــ كما كانت الأوس حليفة لبنى قريظة وبنى النضير كمــا قدمنا فلما كان يوم اخراج بنى قينقاع من المدينة تشفع فيهم عبد الله بن أبى بن سلول اذ أنه لمــا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بحصارهم واستسلموا له أشــار المسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم بقتلهم ولكن عبد الله بن أبى حليفهم تقــدم الى النبى يشفع فيهم ويقول أحسن الى موالى .

ولم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم جوابا لشدة غضبه فعاد الى قوله وألح حتى قال له رســول الله صلى الله عليــه وسلم : « هم لك » وأمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يغادروا المدينة فى ثلاثة أيام ثم عاد ابن أبى يشفع فى بنى قينقاع ولكن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم دفعوه عن بابه فدفعهم وتشاجر معهم فشج رأسه فلمــا بلغ اليهود ما كان من ابن أبى وما أصابه قالوا لا نقيم فى بلد تشج فيــه يا ابن أبى ولا نستطيع عنك دفاعا .

وفى معركة أحد كان عبد الله بن أبى من الرأى الذى دعا الى أن يقيم النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة ولا يخرج الى الأعداء وكان ذلك هو رأى النبى صلى الله عليه وسلم نفسه . ولكن أغلب الأنصار ممن لم يحضروا بدرا رأوا أن يخرجوا الى العدو ودفعتهم الحمية لذلك وقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم أخرج بنا الى عدونا انا نخشى أن يظنوا بنا جبنا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا وقالوا متى نحاربهم وقد نخلوا شعبنا ووطئوا زرعنا فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم كارها . وخرج معه ألف مقــاتل وكان فيهم عبد الله بن أبى فى ثلاثمائة ومعه طائفة من حلفائه من غير المسلمين فلما أصبح الصباح انسحب عبد الله بن ابى من الجيش برجاله عائدا الى المدينة فلحق به

عبـد الله بن حزام يرجعه فيما فعل فقال له عبد الله بن أبى لقد عصانى وأطاع الغلمان . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبة حلفاء عبد الله بن أبى وكان قد ابصر بها ووجدها كثيرة الضوضاء والجلبة لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا .

ولما انهزم جيش المسلمين فى أحد بالغ عبد الله بن أبى فى اظهار فرحه وشماتته وبالغ فى تأنيب ابنـه عبد الله بن عبـد الله ـ وكان من المؤمنين الخالصين ـ لما أصابه من الجروح فى المعركة فكان عبد الله يجيب أباه بأن الله قد صنع برسوله وللمسلمين خيرا . وكان من هذه الشماتة التى اظهرها عبد الله بن أبى أن حال المسلمون بينه وبين الكلمة التى اعتـاد أن يقولها بعد صـلاة الجمعة فى التعاون والتكاتف مع النبى صلى الله عليـه وسلم فأخـذوا بأثوابه يجذبونه منها جذبا ويمنعونه من الـكلام وهم يقولون له اجلس والله لست أهـلا لذلك وقد صنعت ما صنعت فخرج عبد الله ابن أبى من المسجد مخذولا يقول لكأنما قلت هجرا مع أنى قمت أشد أزره .

ولما أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم اليهـود من بنى النضير أن يخرجوا من المدينة بعد أن نقضوا العهد جعل عبد الله بن أبى يحرضهم على البقاء وقال لهم لا تخرجوا وأقيموا فى دياركم وأموالكم فان معى ألفين من قومى ومن العـرب يدخلون معكم ويحـاربون دونكم وزين ذلك لليهـود فخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى حاربهم وحاصرهم وانتظر اليهود ما وعدهم به عبد الله بن أبى من النجدة ولكنه أخلف وعده ولم ينجزه لهم فاستسلموا بعد أن كبدهم وعده خسارة فى الأموال والأرواح .

وفى ذلك نزل قوله تعالى : « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتـاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحـدا أبدا وان قوتلتم لننصركم والله يشـهد انهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهـم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون » الى أن قال « كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين . » (الحشر الآيات ١١ وما بعدها) .

وحدث بعد غزوة بنى المصطلق أن ازدحم رجل من المهاجرين برجل من الأنصار على الماء . فصاح الأنصارى يا معشر الأنصار وصاح المهاجر يا معشر المهاجرين فمشى الى المتشاجرين نفر من كلا الفريقين ففضوا ما بينهما . ووصل هذا الخبر الى عبد الله بن أبى فغضب وقال لقد كاثرنا هؤلاء المهاجرون فى بلادنا والله ما عدانا واياهم الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وحرض المنافقين على الفتنة وعيرهم بقسمتهم أموالهم بينهم وبين المهاجرين .

ولما بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم عمد الى التثبت منه ، فلما تأكد غضب له وقال عمر بن الخطاب يا رسول الله مر به رجلا منا فيقتله فرفض النبى ذلك وقال كيف يا عمر لو تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه .وأمر بالرحيل فعجب الناس من الرحيل فى ساعة الحر والقيظ وقال سعد بن عبادة أيا رسول الله لقد أمرت بالرحيل فى ساعة لم تكن لتأمرنا بالرحيل فيها فقال له : (مامعناه : أو لم يبلغك ماقاله صاحبكم ابن أبى زعم أنه ان رجع الى المدينة أخرج الأعز منها الأذل . وسار عبادة بن الصامت الى ابن أبى لكى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب أن يستغفر الله له فلوى عبد الله رأسه معرضا عنه فقال له عبادة : والله لينزلن فى لى رأسك قرآن يصلى به .

ثم أنكر عبد الله بن أبى ما نسب له وأقسم بالله انه ما قال ما نقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ثم نزل القرآن مصدقا لما أنكره عبد الله ابن أبى « واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرين . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ان الله لا يهدى القوم الفاسقين . هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

(المنافقون الآيات ٥ وما بعدها) .

واتنظر الناس ما يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عبد الله بن أبى ولكنه لم يفعل معه شيئا وكانوا يظنون أنه سيأمر بقتله . وسار عبد الله ابن عبد الله بن أبى الى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : « يا رسول الله انه بلغنى أنك تريد قتل أبى فان كنت فاعلا فمرنى به فانا احمل اليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى . وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل أبى فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل بذلك النار . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم (مامعناه) بل نترفق به ويحسن صحبته ما بقى معنا .

ولما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للعمرة ــ عام صلح الحديبية بلغ قريش أن عبد الله بن أبى فى المسلمين فارسلت اليه قريش أن ان احببت أن تدخل فتطوف البيت فافعل فقال له ابنه يا ابت اذكرك الله الا تفضحنا فى كل موطن . تطوف ولم يطف رسول الله ؟ فرفض عبد الله بن أبى ما دعته اليه قريش وقال لا أطوف حتى يطوف رسول الله . وبلغ هذا الحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر به .

قيل ولما حضر الموت عبد الله بن أبى كثر القوم من بنى قينقاع والمنافقين حول سريره فاغضب ذلك ابنه وهم بأن يغلق الباب فى وجوههم فمنعه أبوه وقال له دعهم فان قربهم منى يشفى صدرى العليل ويخفف من آلامى فقد شاركونى فيما نزل بى من النوائب .

ولما مات أرادوا ان يستخلصوه ويستأثروا بدفنه ولكن عبادة بن الصامت منعهم وقام المسلمون بالدفن وكفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميص له وحضر دفنه وظل واقفا الى أن وورى التراب .

وجاء أن عبد الله بن عبد الله بن أبى كان قد سأل النبى صلى الله عليه وسلم أن يكفن أباه فى قميصه ويصلى عليه فأجابه الى ذلك . فاعترض عمر رضى الله عنه فقال عليه السلام ذلك لا ينفعه وانى لأرجو أن يؤمن به ألف من قومه . فنزلت « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » . (التوبة الآية ٨٤) .

هذه هى طوفة سريعة بحرب النفاق كيف بدأت بالمدينة وكيف اشتدت عقب هجرته اليها صلى الله عليه وسلم فبدأت بسيل من الجدل والاعتراض باســم العلم والفهم ثم كيف قمع النبى صلى الله عليه وسلم معــركة الجدل باخراجه بنى قينقاع وكيف استمرت معركة الجدل حتى قطعهــا ما وقع فى قلوب المنافقين من الرهبة باخراج بنى النضير من المدينة .

ذلك بان الله أمر النبى صلى الله عليه وسلم ان يأخذ المنافقين بالشدة والغلظة ووصفهم بأنهم كالمشركين والكفار وأنهم فى الدرك الأســفل من النار .

ولما تعذر على اليهود كسب المعركة بالتظاهر والكلام والنفاق دخلت المعركة سافرة الى ميدان السيف والقتال .

الفصل الخامس

الحزم والسيف

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء »
قرآن كريم

بعد أن بلغت حرب النفاق ما وصفنا من الخطورة على دولة الاسلام وتهديدها بالانقضاض وانقلاب الأنصار عليها وهجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه معه الى المدينة لم يبق الا الحزم وحرب السيف .

وتتلخص أدوار هذه الحرب الجديدة فى قتل بعض أعداء الدولة الاسلامية ككعب بن الأشرف ثم فى اخراج بنى قينقاع من المدينة ثم اخراج بنى النضير مما حولها ثم القضاء على بنى قريظة ثم تعقب فلول بنى النضير واليهود فى خيبر ثم اخراجهم نهائيا من الجزيرة العربية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وبذلك شنت هذه الحرب على شخصيات يهودية بعينها وعلى البطون الكبرى وهى بنو قينقاع ثم بنو النضير ثم بنو قريظة ثم اليهود فى خيبر من مختلف البطون .

وقد روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه (١) قال بينما نحن فى المسجد اذ خرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال انطلقوا الى يهود فخرجنا حتى جئنا ببيت المدارس فقال أسلموا تسلموا واعلموا أن الأرض لله ورسوله

(١) أنظر سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٧٩ .

وانى أريد أن أجليكم من هذه الأرض فمن يجد منكم بماله شيئا فليبعه والا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله .

وجاء عن عمر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها الا مسلما . رواه أحمد ومسلم والترمذى وصححه الشوكانى فى نيل الأوطار وعن عائشة رضى الله عنها قالت آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال لايترك بجزيرة العرب دينان رواه أحمد والشوكانى فى نيل الأوطار وعن أبى عبيدة بن الجراح قال آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم اخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب أو كما قال رواه أحمد والشوكانى وعن ابن عباس رضى الله عنه قال اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس وأوصى عند عودته بثلاث أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم وقد نسيت الثالثة . متفق عليه .

ولقد أكثر المؤرخون من فحص تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم فى يهود ووصفوها بالشدة وقال بعضهم ان الاسلام يميل لسفك الدماء . وانما نحب قبل أن نعرض لهذه الوقائع أن نميل بالقارىء الى بعض الفقه ميلا خفيفا ليدرك أساس عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اليهود ليتفهم أصله .

فالمتفحص لأحكام الاسلام فى تلك الفترة يجدها تصدر عن قانون الحرب (الجهاد) وان المدينة التى كانت تتضمن الدولة الاسلامية كانت فى الواقع كتلة محاربة قد أحيطت بالعداوة من كل جانب وتربص بها الأعداء من كل مكان . وكان أشد أعدائها خطرا هم صفوف الأعداء الداخليين المنبثين فى قلب المدينة من دعاة الفتنة وقلب الأمور ومروجى الهزيمة والمرجفين . ولسبب هذه الحالة الحربية التى كانت فى المدينة فى تلك الفترة فانه لاتطبق الأحكام الشرعية العادية (قانون السلام) بل تطبق الأحكام الاستثنائية المستقاة من قانون الحرب والمتفرعة عليها . وربما يمر الفقيه ببعض أحكام الاسلام التى يظنها من الأحكام العادية ولا يفطن الى أنها

متفرعة من أحكام الجهاد وقائمة عليها وذلك مثلا كأحكام البغاة وأحكام المرتد عن الاسلام (١)

وكذلك أحكام معاملة النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الفترة لليهود انما ينظر فيها على هذا الاعتبار وهى أنها أحكام مشتقة من أحكام الجهاد والسير (قانون الحرب) وان اعتبار أمن الدولة هو المسيطر عليها ولذلك فقد أعذر الله رسوله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم وانه ان لم يكن ما كان منه معهم لما قامت دولة الاسلام ولتمكنوا منها بكيدهم .

ولو وصفت العلاقة بين أمة الاسلام وبين اليهود فى هذه الفترة ، لتبين انها علاقة من نوع خاص غير العلاقات التى استقر عليها تنظيم الشريعة الاسلامية للعلاقات بين المسلمين وغيرهم (٢) .

فهم من ناحية لم يكونوا من أهل الذمة لأن الذمة تتأتى من الصغار والقهر والغلبة بالفتح أو النزول على حكم المسلمين فتفرض عليهم الجزية وشروط يحترمونها ، ولم يكن ذلك قد حدث بين المسلمين واليهود عند دخول النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة ولم تكن آية الجزية (سورة التوبة الآية ٢٩) قد نزلت بعد .

---

(١) فالمرتد مثلا لاينظر اليه على انه اتى ذنبا يعاقب عليه ولكن ينظر اليه على انه « حربى مقهور تحت أيدينا » وان أمواله تعتبر من قبيل الفيء « الغنيمة بلا حرب » ولذلك فهو يعامل معاملة الجاسوس ولا يعتبر قتله حدا من الحدود» مقالة الاستاذ المرحوم الشيخ احمد بك ابراهيم فى الزواج مع اتحاد الدين واختلافه وتغييره ـ مجلة القانون والاقتصاد العدد الاول السنة الاولى » اذ يقول « ان المسألة ملحوظ فيها جانب الخروج على الجنسية الاسلامية أكثر مما هو ملحوظ فيها جانب تبديل العقيدة بدليل اعتباره حربا على المسلمين « فالمرتد اذ بدل عقيدته صار خطرا على امن الدولة وأمكن ان يكون حربا عليها ولذلك فهو يستتاب أو يقتل فى ثلاثة ايام . ومما يدل على ذلك أن بعض المذاهب تلحق احكام المرتد بأبواب الجهاد والسير كما أن احكامه لايمكن تفسيرها فى معظم المذاهب الا على أساس انه حربى يقتل ، وليس جانيا يوقع عليه العقاب . وقد نص الحنفية صراحة على ان المرتد يقتل لانه حربى كافر بلغته الدعوة وان المرأة لاتقتل لان النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل المرأة (أى فى الحرب والا فانها ترجم حدا) ولانه لاحراب على النساء لعدم صلاحية البنية لذلك فالمرتدة لاتقتل بل تحبس حتى تتوب ولو كان حدا لما انمحى بالتوبة . ونصت بعض المذاهب على ان مال المرتد فيء (أى غنيمة باردة) قال الشافعى ذلك (الام الجزء الرابع صفحة ٢٩١) وهو احد اقوال ثلاثة فى المذهب . وقال المالكية ايضا (اقرب المسالك للامام الدردير المتن صفحة ١٨٦ ـ مكتبة القاهرة) .

(٢) انظر فى بيان هذه العلاقات : بدائع الصنائع للكاسانى الجزء السابع صفحة ١٠٤ و ١٠٩ و ١١٠ ومابعدها . المهذب للشيرازى (شافعى) الجزء الثانى صفحة ٢٥٠ ومابعدها . شرح الخرشى (مالكى) الجزء الثالث صفحة ١٤٣ ومابعدها والمغنى لابن قدامة (حنبلى) الجزء العاشر صفحة ٥١٧ وما بعدها و ٥٦٧ ومابعدها .

ومن ناحية أخرى هم ليسوا حلفاء للمسلمين لأنهم خاضعون فعلا لأحكام الدولة الاسلامية ويعيشون فى داخلها كأفراد من رعاياها تنطبق عليهم أحكامها .

والذى نظنــه أن العلاقة بين المسلمين واليهود فى هــذه الفتــرة ، كانت أقرب ما تكون الى الموادعة فهم قوم من غير المسلمين يعيشون فى كنف المسلمين وخلالهم على وجه الموادعة والمســالمة ، فكانوا فى حالة مؤقتــة لم تكن قد تكشفت بعد ولم تكن قد نزلت فيها أحكام الشرع على وجههــا الدائم النهائى المستقر ، ثم تكشفت بعد ذلك خياناتهم وفعالهم فجرت فيهم الأحكام بحربهم واخضاعهم وفرض الجزية عليهم بعد ذلك صغارا .

والموادعة رابطة غير لازمة للمسلمين ، فهى محتملة النقض (١) ، عند الشك فى أى وقت ، فيكون للامام أن ينبذ اليهم عند خوفه من خياناتهم لقوله تعالى « واما تخافن من قوم خيــانة فانبــذ اليهم على ســواء » الأنفال الآية ٥٨ ، وهو اذا نبذ اليهم صاروا أهل حرب فلا تكون لنفوسهم ودمائهم عصمة ولا حرمة عند المسلمين ، فيجوز أن يأسروا منهم من يجوز أسره وتباح أموالهم لوقوع الحرب بينهم .

هذه هى جملة الأحكام التى نراها تحدد وضع اليهود من المسلمين فى هذه الفترة . ولم نعثر فى كتب الفقه فى المذاهب الثمانية (٢) على من تعرض لوصفها فهو أقرب ما فقهناه من تكييف ووصف والله أعلم .

وقد بينا من قبل رأى أستاذنا المستشار على على منصور (٣) أن العلاقة بين المسلمين واليهود فى هذه الفترة ، تقوم على أساس أن كلا منهما أمــة مستقلة عن الأخرى ، وأن كتاب النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل المدينة كان معاهدة بين الطرفين — الأمة الاســلامية كطرف وأمة اليهود كطرف آخر — وأن هذه المعاهدة تنص على التحكيم مقدما منعا من الاحتكاك

---

(١) بدائع الصنائع الجزء السابع صفحة ١٠٩ .

(٢) التى تنتظمها بحوث موسوعة الفقه الاسلامى بالمجلس الاعلى للشئون الاسلامية وهى المذاهب الاربعة والظاهرية والزيدية والامامية والاباضية .
المذاهب التى تنظم موسوعة الفقه الاسلامى (للمجلس الاسلامى الأعلى) على أساسها .

(٣) الشريعة الاسلامية والقانون الدولى العام ص ٢١٢ ومابعدها ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ .

والمنازعة ، بما جاء فيها من أن ماكان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وانها تقضى كذلك على استقلال كل من أمتى المسلمين واليهود (صفحة ٣٧٥) والتحالف العسكرى بينهما ، وذلك بما قررته من أن (اليهود ينتفعون مع المؤمنين ماداموا محاربين .. وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من دهم يثرب) . وانما رجح لنا أن العلاقة بينهما ليست كذلك ، بل على أساس أن اليهود أقلية تعيش فى كنف الاسلام ، وضمن لهم هذا العهد حريتهم وعصمة مالهم وتفوسهم ، وذلك لما رجحناه من أن هذا الكتاب كان عملا من جانب واحد ، على أساس السلطة العامة ، ولم يكن نتيجة الاتفاق ، وانه يتضمن مبادىء القانون الداخلية فى الدولة لا تنظيم علاقة دولية بالمعنى المفهوم . فما قرره الكتاب من الزام اليهود النفقة هو من قبيل تحميل الرعايا لجزء من النفقة العامة ، على الوجه الذى نص عليه بالنسبة للمسلمين أنفسهم .

واذن فقد كان اليهود فى مركز مؤقت — يختلف عما استقرت عليه أحكام الدين فيما بعد — يجعلهم أقلية موادعة للمسلمين يلتزمون حرمة الاسلام ويعيشون بين المسلمين مسالمين ، ولهم مالهم ، وعليهم ما عليهم ، لايدفعون الجزية ولا يلقون صغارا .

وعلى مدار هذه القواعد كانت تصرفات النبى صلى الله عليه وسلم مع من قتل من اليهود الغادرين ككعب بن الأشرف ، ومع المعتدين كيهود بنى قينقاع أو بنى النضير أو ناقضى العهد كيهود بنى قريظة أو المقاتلين كيهود خيبر .

وفهم تصرفاته صلى الله عليه وسلم على هذا المساق ينفى ما أثاره مؤرخو اليهود وغير المسلمين من التشويش والتهويل وتهمة القسوة وانما هذه الأحداث يطبق فيها قوانين السير (الجهاد والحرب) وأحكامه وعومل اليهود فيها على أساس أنهم اما موادعون اعتدوا أو نقضوا وعلى أساس أنهم محاربون تطبق عليهم أحكام الحرب .

مقتل كعب بن الأشرف وهو من يهود

قال ابن اسحق (١) : وكان من حديث كعب بن الأشرف أنه لما أصيب أصحاب بدر وقدم زيد بن حارثة الى أهل السافلة (أسفل المدينة) وعبد الله ابن رواحة الى أهل العالية (أعلى المدينة) بشيرين بعثهما رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بالمدينة من المسلمين بفتح الله عز وجل وقتل من قتل من المشركين قال كعب بن الأشرف حين بلغه هذا الخبر أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان ؟ (يعنى زيدا وعبد الله بن رواحة) . فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها .

قال فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على عبد المطلب ابن أبي وداعة بن هبيرة السهمى وعنده عاتكة بنت أبى العاص أو العيص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . فأنزلته وأكرمته .

وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب من قريش الذين أصيبوا ببدر (لكى يثيروا أحزانهم ويهجوا شجونهم) .

ثم رجع كعب بن الأشرف الى المدينة فشبب (تغزل) بنساء المسلمين حتى آذاهم .

تقول فجمع كعب بن الأشرف فى ذلك بين اظهار الحقد على المسلمين وتحريض أعدائهم عليهم والاعتداء على حرمة المسلمين وايذائهم فى نسائهم .

قال ابن اسحق (٢) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لى بابن الأشرف) فقال محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل انا لك به يارسول الله انا أقتله . قال : فافعل ان قدرت على ذلك ؟

---

(١) سيرة ابن هشام صفحة ٤٣٠ وما بعدها .

(٢) سيرة ابن هشام ٤٣٦ ومابعدها .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب الا ما يعلق (يقيم) به نفسه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه فقال له (لم تركت الطعام والشراب) فقال (يارسول الله قلت لك قولا لا أدرى هل أفى لك به أم لا (فقال انما عليك الجهد) قال : (يا رسول الله انه لا بد لنا من أن نقول (أى يكلم بعضنا بعضا) قال (قولوا مابدا لكم فأنتم فى حل من ذلك) .

فاجتمع فى قتله محمد بن مسلمة وسلطان بن سلامة بن وقش وهو أبو نائلة أحد بنى الأشهل . وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة وعباد بن بشر بن وقش أحد بنى عبد الأشهل والحرث بن أوس بن معاذ أحد بنى عبد الأشهل ، وأبو عبس بن جبر أحد بنى حارثة .

قال ثم قدم سلطان بن سلامة الى عدو الله كعب بن الأشرف قبل أن يأتيه سائرهم فجاءه فتحدث معه ساعة وتناشرا شعرا وكان أبو نائلة (سلطان) يقول الشعر .

ثم قال ويحك يابن الأشرف انى جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فاكتم عنى (يعنى لاتفضى بها لأحد) قال فافعل قال كان قدوم هذا الرجل (يعنى محمدا) علينا بلاء من البلاء ، عادتنا به العرب ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يابن سلامة أن الأمر سيصيد الى ما أقول (يعنى تنبأ بذلك) .

فقال له سلطان انى قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك وتحسن فى ذلك .

فقال له كعب أترهنونى أبناءكم ؟ أو قال أترهنونى نساءكم ؟ قال لقد أردت أن تفضحنا (يعنى أن فى ذلك فضيحتنا) ان معى أصحابا لى على مثل رأيى وقد أردت أن آتيك بهم فتبيع وتحسن فى ذلك ونرهنك من الحلقة (السلاح) ما فيه وفاء .

وأراد سلطان أن لاينكر (يدهش) من السلاح اذا جاءوا به .
قال كعب ان في الحلقة لوفاء .

قال فرجع سلطان الى أصحابه فأخبرهم خبره وامرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فاجتمعوا اليه ، ثم اجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن اسحق ومشى معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بقيع الفرقد ثم وجههم فقال (انطلقوا على اسم الله . اللهم اعنهم) .

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته وهو فى ليلة مقمرة .

وأقبلوا حتى انتهوا الى حصنه فهتف به أبو نائلة وكان حديث عهد بعرس فوثب فى ملحفته فأخذت امرأته بناصيتها وقالت (انك امرؤ محارب وان أصحاب الحرب لاينزلون هذه الساعة) قال انه أبو نائلة لو وجدنى نائما أيقظنى فقالت (والله انى لأعرف فى صوته الشر) قال (لو يدعى الفتى لطعنة لأجاب) .

فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا (هل لك يا ابن الأشراف أن تماشى الى شعب العجوز (مكان) فنتحدث به بقية ليلتنا هذه فقال (ان شئتم) .

فخرجوا يتماشون . فمشوا ساعة .

ثم ان أبا نائلة أدخل يده فى فود رأسه ثم شم يده فقال (ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط) ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن .

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال (اضربوا عدو الله) .

فضربوه . فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن شيئا . (ربما لتدرعه) .

قال محمد بن مسلمة فذكرت معولا (سكينا) فى سيفى حين رأيت أسيافنا لا تغنى شيئا فأخذته وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن الا وقد أوقدت عليه نار (أى سمعوا الصيحة فأضاءوا) .

قال فوضعته (أى السكين) فى ثنته (أسفل البطن) ثم تحاملت عليه حتى بلغت عانته .

فوقع عدو الله .

وقد أصيب الحارس بن أوس بن معاذ فجرح فى رأسه أو فى رجله ... أصابه بعض أسيافنا .

قال فخرجنا حتى سلكنا على بنى أمية بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعاث حتى أسندنا (ارتفعنا) فى حرة العريض (مكان) وقد أبطأ علينا صاحبنا الحرث بن أوس ونزفه الدم فوقفنا ساعة ثم أتانا يتبع آثارنا .

قال فاحتملناه فجئنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر الليل وهو قائم يصلى . فسلمنا عليه فخرج الينا فأخبرناه بقتل عدو الله .

ورجعنا الى أهلنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله فليس بها يهودى الا وهو يخاف على نفسه .

نتائج قتل كعب

كان من أثر قتله أنه أوقع الهيبة فى نفوس اليهود المنافقين . وخفقت أصوات مجاهرتهم بالعداوة والتحريض على المسلمين .

قيل وكان ذلك تمهيدا لايقاع الرعب فى قلوب بنى قينقاع لاجلائهم عن البلاد وقمع روح مقاومتهم لأمره صلى الله عليه وسلم اذ أمرهم بالجلاء .

وعلى أية حال فانه بداية سياسة الحزم والسيف مع اليهود وانتهاء الملاينة والتسامح معهم .

ما وجه من نقد الى هذه الواقعة

ولقد أكثر المؤرخون الغربيون من نقد هذا التصرف ووصفوه بأوصاف مناسبة

واذا طبقنا عليه مقاييس الشريعة الاسلامية لوجدنا أن كعب ابن الأشرف قد تكون له صفة الموادع اذا اعتبرناه من مطلق أهل المدينة من اليهود الذين شملهم عهده صلى الله عليه وسلم لليهود حين دخلها ، قلنا ان

ذلك العهد تضمن لهم الموادعة جميعا لا من ذكروا فقط . وان كعبا وقد خرج من دار الاسلام ولحق بدار الحرب وحرض أهلها على المسلمين يعتبر بذلك ناقضا لعهده فتطبق عليه أحكام الحربي وتزول عصمة نفسه وماله فى دار الاسلام (١) فيحل قتله أما اذا قلنا ان العهد قد تضمن أناسا بخصوصهم وأن كعبا لم يكن من أحد بطون اليهود فلا هو الى بنى النضير ولا الى بنى قريظة أو غيرهم وانما كان من طيىء وأمه نضيرية فانه لا يكون ممن انصرف اليهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل المدينة ويكون القول فيه بما تقدم من باب أولى . وتطبق على الحربيين أحكام القتال .

---

(١) بدائع الصنائع (حنفى) الجزء السابع صفحة ١٠٩ ومابعدها • والمهذب للشيرازى (شافعى) الجزء الثانى صفحة ٢٥٧ فى الذمى فهو فى الموادع اولى و ٢٦١ بالنسبة للموادعة .

الفصل السادس

اخراج بنى قينقاع من المدينة

قال ابن اسحق (١) كان من حديث بنى قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بنى قينقاع ثم قال (يامعشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم . قالوا : (يامحمد انك ترى انا قومك لايغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب — فأصبت منهم فرصة . انا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) .

وقال ابن هشام كان من بنى قينقاع أن امرأة من العرب قدمت لجلب (بضاعة) بها.فباعته بسوق بنى قينقاع وجلست الى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى ظهرها بشوكة فلما قامت انكشفت سوءتها . فضحكوا بها فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديا فشد اليهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم على اليهود فغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع .

قال ابن اسحق فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه . واستعمل على المدينة فى محاصرته اياهم بشير بن عبد المنذر وكانت محاصرته اياهم خمس عشرة ليلة .

فقام اليه عبد الله بن أبى بن سلول حين أمكنه الله منهم فقال يامحمد أحسن فى موالى وكانوا حلفاء الخزرج . قال فأبطأ عليه رسول الله صلى الله

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ٤٢٦ .

عليه وسلم فقال يامحمد أحسن فى موالى قال فأعرض عنه فأدخل يده فى جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقال لها ذات الفضـــول . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (أرسلنى) وغضب رسول الله صلى الله عليـــه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللا جمع ظلة وهى (الســحابة) ثم قال (ويحك أرسلنى) قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى . أربعمائة حاسر (يعنى بنى قينقاع ممن ليس عليهم دروع) وثلاثمائة دارع (لابس الدرع) قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ؟ انى والله امرؤ أخشى الدوائر . قال : (فقال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم) (هم لك) .

قيل وقد أعقب عفو النبى صلى الله عليه وسلم عن بنى قينقاع أمره لهم أن يغادروا المدينة فى ثلاثة أيام لايأخذون معهم أموالهم ومتاعهم ووكل النبى صلى الله عليه وسلم عبادة بن الصامت وكان حليفا لبنى قينقـــاع ثم برىء من حلفهم أن يكون مشرفا على ترحيلهم وتنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . ورفض عبادة بن الصامت أن يجيبهم الى ماطلبوه من زيادة المهلة للجلاء . وذهب عبد الله بن أبى بن سلول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله العفو عن بنى قينقاع وابقاءهم فى مقـــامهم فمنعـــه الصحابة عن باب النبى صلى الله عليه وسلم ودفعوه عنه فدافعهم وتشـــاجر معهم وشج رأسه فلما بلغ اليهود ذلك قالوا (والله ما نقيم ببلد تشج فيه يابن أبى ولا نستطيع عنك دفاعا) وجلوا عن المدينة بنسائهم وأولادهم وما سمح لهم بحمله من أموالهم ومتاعهم حتى نزلوا بأذرعات على حدود الشام .

وعن ابن عباس أنه نزل فيهم لما شادوا بأنهم أهل الحـــرب (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا (أصحاب بدر وقريش) فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار (آل عمران الآية ١٢ وما بعدها) .

ولما تشبث عبد الله بن أبي بن سلول بحلف بني قينقاع وتبرأ عبادة بن الصامت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من حلفه له وكان أحد بني عوف وكان لهم حلف مثل الذى لهم من عبد الله بن أبي نزل قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لايهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض (مثل عبدالله بن أبى) يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة (لقوله انى امرؤ أخشى الدوائر) فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . (المائدة الآية ٥١ وما بعدها) وقد جاء بعدها (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) .

(المائدة الآيتين ٥٥ و ٥٦) .

ما قيل فى أسباب يوم بنى قينقاع :

قال ولفستون ان السبب فى البدء ببنى قينقاع على ما وصف بالذات هو أنهم كانوا أغنى أحياء اليهود وماكان عليه المهاجرون من سوء الحال وانتظار الحرب . وانهم كانوا قليلى العدد ولم يكونوا كسائر اليهود فى الدراية بالحرب لأنهم أهل صناعة وحضر وانهم كانوا موالى الخزرج وقد دخل معظم الاسلام فبقى بنو قينقاع بلا نصير كما أنه كان بينهم وبين سائر بطون اليهود خلاف ولما كان يوم بعاث قامت بينهم الحرب فى جانب الخزرج وبين بنى قريظة وبنى النضير حلفاء الأوس ولذلك سهل على المسلمين اخراجهم .

وظاهر مافى هذا القول من تحامل . ينفيه من ناحية أنهم تطاولوا وتفاخروا يومها بأنهم أهل حرب كما ينفيه من ناحية أخرى أن عبد الله بن أبى انتصر لهم .

وقال المرحوم محمد حسين هيكل (١) ان بنى قينقاع كانوا يقيمون فى المدينة وان سائر اليهود كانوا يقيمون بعيدا عنها . ولذلك كان اجلاؤهم

(١) حياة محمد صفحة ٢٧٤ .

لاخلاء المدينة من اليهود تأمينا للخطوط الداخلية وتمكينا لوحدتهـا التى استهدفها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانما نرى أن نعود الى ما اخترناه من أنه صلى الله عليه وسـلم كان يعمل بالوحي وان تكشف بعد ذلك الناس مافى عمله صلى الله عليه وسلم من مطابقة لمقتضيات السياسة ولذلك نقف عند الأسباب المباشرة وهى أنهم أظهروا العداوة للمسلمين بعد بدر وفجروا بهم حتى كان هذا الصائغ يجرد امرأة من المسلمين من ثوبهـا فى السوق حتى تبـدو سوءتها وفى ذلك غاية الاستهانة بعصمة المسلمين فى أعراضهم والحط منهم ، وحتى تقوم الحرب بين الفريقين فى قلب المدينة وكان من الجائز أن ينتصر فريق من الخزرج لهم فتندفع الشرارة بين المسلمين وفى ذلك تهديد للأمن وقت الحرب فمازال اليهود أهل حقد وفتنة وفساد على هذه الصورة فقد سـاغ اخراجهم من المدينة .

وكذلك فان النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم الناس أمر دينهم . ومن أموره أن أهل الكتاب عليهم أن يحفظوا للمسلمين أعراضهموأن يكون الدين ظاهرا فى دار الاسلام فاذا أحدث أهل الموادعة ذلك كان نقضا للعهد فى جميع المذاهب (١) وهو يجيز قتالهم . وانما أجاز النبى صلى الله عليـه وسلم فى هذه الواقعة أن يعطيهم أجلا فى أن يخرجوا من بلاد الاسلام ثم اذا خرج فبلغ مأمنه جاز قتله ان قدر عليه . فهى معاملة أفضل مثل معاملة أصحاب الهدنة لأجل مسمى غير الناقضين أن يتموا اليهم عهدهم الى مدتهم فى قوله تعالى :

(الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم) . (التوبة الآية ٤) .

وقد أشرنا من قبل أن آية الجزية (التوبة رقم ٢٩) لم تكن نزلت فى ذلك الوقت أما خروجهم بـدون أموالهم ففيـه — كما أرى — أنهم

---

(١) انظر المراجع السابق الاشارة اليها فى المذاهب الاربعة .

بخروجهم ولحاقهم بدار الحرب قد صاروا حربيين فلا يتقوون بما يحملونه من مال يتخذونه ارصادا لمحاربة الله ورسوله والمؤمنين ، والله أعلم .

نتائج اخراج بنى قينقاع من المدينـــة

ترتب على اخراجهم ما قدمنـــاه من استتباب أمن المدينـــة ووحدتها . وبخاصة عند الحرب .

كما ترتب عليه زيادة هيبة المسلمين فى القلوب وانقطاع الجدل العلنى والمناقشة المغرضة فى الدين .

الفصل السابع

إجلاء بني النضير

وسببها غدر اليهود برسول الله صلى الله عليه وسلم لما أتاهم يستعينهم فى فدية فقد كان عمرو بن أمية ضمن من غدر المشركون بهم عند بئر معونة ونجاه الله فلما كان فى طريق عودته الى المدينة وقع برجلين قتلهما . وكانا من بنى عامر . فلما قص ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ياعمرو بئس ما صنعت قتلت رجلين كان لهما منى أمان وجوار فوجب على ديتهما أو كما قال .

قال ابن اسحق (١) ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى للجوار الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقده لهما . وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف .

فلما أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا « نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ».

ثم خلا بعضهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس الى جنب جدار من بيوتهم .

فقالوا « انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ »

فانتدب لذلك عمرو بن جحاش . فقال « أنا لذلك » .

فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضوان الله عليهم .

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثانى صفحة ١٩٢ .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم • فقام « وكأنه سيقضى حاجة له » وخرج راجعا الى المدينة .

فلما استلبث « طال انتظار » أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قاموا لطلبه .

فلقوا رجلا مقبلا من المدينة فسألوه فقال رأيته داخلا المدينة .

فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهوا اليه صلى الله عليه وسلم فأخبرهم بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم .

ثم سار بالناس حتى نزل بهم فحاصرهم فيها ست ليال فتحصنوا منه فى الحصون .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل والتحريق فيها .

فنادوه يامحمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ .

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج فيهم عدو الله عبد الله بن أبى ابن سلول ووديعة ومالك بن أبى قوقل وسويد وداعس قد بعثوا الى بنى النضير « أن اثبتوا وتمنعوا فانا لن نسلمكم ان قوتلتم قاتلنا معكم ، وان أخرجتم خرجنا معكم » •

فتربصوا ذلك من نصرهم . فلم يفعلوا .

وقذف الله فى قلوبهم الرعب وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة (السلاح) ففعل .

فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه (العتبة التى بأعلى الباب) فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به .

فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام .

وكان من أشرافهم الذين ساروا الى خيبر سلام بن أبى الحقيق وكنانة ابن الربيع وحيى بن الأخطب فما نزلوا حتى دان (خضع) لهم أهلها .

قال ابن اسحق انه حدث أنهم (أى بنى النضير) استقلوا (خرجوا) بالنساء والابناء والموالي ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم وان فيهم لأم عمرو صاحبة عدوة بن الورد العبسى وكانت احدى نساء بنى غفار .

وخرجوا بزهاء (أى زهو وتكبر واعجـاب) مارئى مثله من حى من الناس فى زمانهم .

وخلوا الاموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاها المهاجرين الأولين دون الأنصـار الا أن سهل ابن حنيف وسماك بن خرشة ذكرا فقرا فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يسلم من بنى النضير الا رجلان يامين بن عمير بن كعب بن عمرو ابن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاها .

قال ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها تذكر ما أصابهم الله به من نقمته وما سلط عليهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عمل به فيهم فقال تعالى « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر (يعنى تجمع اليهود فى ذهابهم الى ماهاجروا اليه) ماظننتم أنيخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم (لهدمهم نجف أبوابهم) وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شـاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب » (الحشر الآية ٢ وما بعدها) .

وفيها كما قدمنا ذكر عبد الله بن أبى ونفاقه وخلفه بوعده لبنى النضير بقوله « ألم تر الى الذين نافقوا » (الآية ١١ ومابعدها) .

بعض ما قيل فى هذه الواقعة

قال ولفستون فى كتابه السابق (١) أنه يستبعد قصة العزم على القـاء الحجر على النبى صلى الله عليه وسلم لانها لم ترد فى سورة الحشر اشـارة

(١) تاريخ اليهود فى الجاهلية والاسلام صفحة ١٣٦ .

اليها وان « الذى يظهر لـكل ذى عينين أن بنى النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبى واغتياله على مثل هذه الصورة لأنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصاره ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله لما كانت هناك ضرورة لالقاء صخرة عليه من فوق الحائط بل كان فى استطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحادثهم اذ لم يكن معه الا نفر قليل » .

ويلاحظ ما فى قوله من تناقض فبسبب أنهم كانوا يخشون عاقبة فعلهم من أنصارهم لم يكن فى استطاعتهم أن يفاجئوه بالقتل العمد الظاهر بل كان لابد أن يفتعلوا الاصابة قضاء وقدرا مخافة غضب أنصاره .

وقال ان السبب فى أنهم كانوا يخلعون نجف أبوابهم ويحملونها معهم هو عادة اسرائيلية قديمة سببها أنهم كانوا يضعون بعض التوراة أعلى الباب لحفظ بيوتهم ولذلك استصحبوا نجف أبوابهم وفيها هذه الكتب .

وقال البعض كانوا يجعلون فيها من كنوزهم .

وقيل ان أخذهم بذلك كان بدون نيـة ظاهرة ودليل مثبت لاداناتهم وأنه لا يكفى الاستناد لحديث النفس لتوقيع العقـاب ولو كان نبيا لأنه قد يشرع لغيره .

وهذا قول الذين لايؤمنون بالوحى اليه صلى الله عليه وسلم .

الا اننا قدمنا أن أصل الرخصة فى ذلك قوله تعالى « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » والخوف أمر ذاتى مرده الى المقيـاس الداخلى النفسى وشعور عدم الاطمئنان ولا يلزم فيه الدليل الظاهر وعقـد الموادعة كما قدمنا عقد غير لازم .

ونلاحظ أن ما وقع على بنى النضير شبيه بما وقع على بنى قينقاع وهما شبيهان فى أنهم من الوادعين الذين أوقعوا فسـادا فيجوز معه جلاؤهم على الوجه الذى بيناه .

الفصل الثامن

غزوة بني قريظة

« وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقا »
قرآن كريم .

وسببها كما قال ابن اسحق (١) ان نفرا من اليهود منهم سلام بن أبي الحقيق النضري وحيي بن أخطب النضري وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق النضري وهودة بن قيس الوائلي وأبو عمار الوائلي في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل وهم الذين حزبوا الاحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا انا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقالت لهم قريش : « يامعشر يهود ، انكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ » . قالوا « بل دينكم خير من دينه . وأنتم أولى بالحق منه » .

وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت (الأصنام) ويقولون للذين كفروا هؤلاء

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٦٩ .

أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » (سورة النساء الآيات ٥١ ومابعدها) .

أقول حتى ولفستون المؤرخ اليهودى المتعصب(١) يقول فى ذلك «ولكن الذى يلامون عليه بحق ويؤلم كل مؤمن باله واحد من اليهود والمسلمين على السواء انما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين بنى قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الاسلامية » ويتلمس لهم العذر فيقول « ومن ينظر الى الحالة التعسة التى صار اليها بنو النضير بعد اجلائهم عن بلاد سكنوها منذ قرون وكانوا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لايوجه اليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع الى أراضيهم وبحثهم عن الأنصار والأحلاف الذين يعينونهم على تحقيق أمنهم والثأر من خصومهم فان هذه سجية البشر وطبيعة من الطبائع الانسانية بل وعمل مشروع لدى جميع الأمم وكلامه هذا صورة صادقة وطبق الأصل لما نعاه الله على بنى اسرائيل من حب الحياة وشرائها بالآخرة والباس الحق بالباطل فى الجدل العلمى . ونموذج يعيد الى أذهاننا ما ذكرناه فى الفصل الأول مما نزل فيهم .

قال ابن اسحق (٢) فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم اليه من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا لذلك واستعدوا له ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم الى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم أنهم سيكونون معهم وأن قريشا قد تابعوهم على ذلك ، فاجتمعوا معهم فيه .

وخرج المشركون للقتال وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة .

قال ابن اسحق (٣) وخرج عدو الله حيى بن أخطب النضرى حتى أتى كعب بن أسعد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم وكان قد وادع

---

(١) كتابه تاريخ اليهود صفحة ١٤٢ .
(٢) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٦٩ .
(٣) السيرة المجلد الثالث صفحة ١٧٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده على ذلك وعاهده فلما سمع كعب بحيى بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له .

فناداه حيى « ويحك ياكعب افتح لي »

قال « ويحك ياحيى انك امرؤ مشئوم واني قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه الا وفاء وصدقا » .

قال « ويحك افتح لي أكلمك » .

قال « ما أنا بفاعل » .

قال « والله ما أغلقت الحصن دوني الا تخوفا على جشيشتك (طعام يصنع من الحب المدشوش) أن آكل منها معك » .

فاحفظ (لغاظ) الرجل . ففتح له .

فقال « ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر وببحر طمام . جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى بمجتمع الاسيال من دومة (مكان) وبغطفان على قادتها وسادتها وأنزلتهم بذنب نقمى (مكان) الى جانب أحد قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدا ومن معه » .

فقال له كعب « جئتني والله بذل الدهر وبجهام (سحاب فارغ) قد هراق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك يا حيى فدعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمد الا صدقا ووفاء » .

فلم يزل حيى بكعب يفتله في الذروة والغارب (يأخذه بالحيلة) حتى سمح له وأعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك .

فنقض كعب بن أسد عهده وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما انتهى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر والى المسلمين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ بن النعمان وهو يومئذ

سيد الاوس — وسعد بن عبادة بن دليم أحد بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج — وهو يومئذ سيد الخزرج — ومعهما عبد الله بن رواحة أخو بنى الحرث بن الخزرج وخوات بن جبير أخو بنى عمرو بن عوف فقـــال « انطلقوا حتى تنظروا أحق مابلغنـــا من هؤلاء القوم أم لا فان كان حقا فالحنوا (يعطوه اشارة خفية فى كلامهم) لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس (يضعفونهم) وان كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم . نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا « من رسول الله ؟ لاعهـــد بيننا وبين محمد ولا عقد » .

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه . وكان رجلا فيه حدة .

فقال له سعد بن عبـــادة « دع عنك مشاتمتهم فما بيننـــا وبينهم أربى (أكثر) من المشاتمة » .

ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما الى رسول الله صلى الله عليه وســـلم فسلموا عليه ثم قالوا « عضل والقارة » أى كغدر القارة بأصـــحاب الرجيع خبيب وأصحابه فقـــال رسول الله صلى الله عليـــه وسلم « الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين » .

أقول ودارت معركة الأحزاب . وقال ابن اسحق وحاربت بنو قريظـــة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت صفيـــة بنت عبد المطلب فى حصن لحسان بن ثابت يقال له فارع قالت « وكان حســـان ابن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان ، قالت « فمر بنا رجل من يهود جعل يطوف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى نحور « صـــدور » عدوهم « أى فى الخطوط الامامية » لايستطيعون أن ينصرفوا عنهم الينا وان أتانا آت » قالت «فقلت يا حسان ، ان هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن وانى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا «خفايانا» من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانزل اليـــه فاقتله قال يغفر الله لك يا ابنـــة عبد المطلب ، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا » .

قالت « فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئا من « النخوة » احتجزت « شــددت وسطى » ثم أخذت عمودا « قضيبيــا من حديد » ثم نزلت من الحصن اليه . فضربته بالعمود حتى قتلته ، قالت فلما فرغت منه رجعت الى الحصن فقلت يا حسان انزل اليه فاسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه الا أنه رجل قال (مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب) » .

قال ابن اسحق ثم ان نعيم بن مسعود بن عامر بن قنفذ بن هلال بن خلادة بن أشجع بن ريث بن غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا رسول انى قد أسلمت وان قومى لم يعلموا باسلامى فمرنى بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انما أنت فينا رجل واحد فخذل عنــا (يعنى اجعل الاعداء ينخذلون عن متابعة الحرب معنــا) ان اســتطعت فان الحرب خدعة » .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديما فى الجاهلية فقال يابنى قريظة قد عرفتم ودى اياكم وخاصة ما بينى وبينكم ، فقال لهم « ان قريشا وغطفان ليسوا كأنتم (ليس حالهم كحالكم) البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لاتقدرون على أن تحولوا منه الى غيره . وان قريشا وغطفان قــد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليــه وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم فان رأوا نهزة (فرصــة) أصابوها وان كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به ان خلا بكم فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقــة لكم على أن تقــاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه ، فقالوا لقد أشرت بالرأى » .

ثم خرج نعيم حتى أتى قريشا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش « قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا وانه قد بلغنى أمر رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى » .

قالوا (نفعل) قال (تعلمون ان معشر يهود قد ندموا على ما صنعوه فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا اليه انا قد ندمنا على مافعلنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبلتين من قريش وغطفان رجــالا من أشرافهم فنعطيكاياهم

فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم ؟ فارسل اليهم أن نعم فان بعث اليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا اليهم منكم رجلا واحدا) .

ثم خرج حتى أتى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

وطلبت اليهود من القبيلتين أن يعطوهم رهنا من رجالهم حتى لايتركوهم الى بلادهم اذا اشتدت الحرب وهم لا طاقة لهم به فلما بلغهم ذلك قالت قريش وغطفان (والله ان ما حدثكم به نعيم بن مسعود لحق) فأرسلوا الى بني قريظة (انا لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فان كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا) . فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل اليهم بهذا . (ان الذي ذكر نعيم بن مسعود لحق . ما يريد القوم الا أن تقاتلوا فان رجعوا الى بلادهم خلوا بيننا وبين الرجل في بلدنا) .

فأرسل بنو قريظة الى قريش وغطفان (انا والله لا نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا) فأبوا عليهم . وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليلة شاتية باردة شديدة البرد . فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم أو آنيتهم . فرجعوا الى بلادهم .

* * *

قال ابن اسحق (١) ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق راجعا الى المدينة والمسلمون ووضعوا السلاح فلما كانت الظهر أتى جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم معتجرا بعمامة يعنى يلفها على رأسه فقط دون أن يحيط لحيته بطرفها من استبرق (حرير) على بغلة عليها رحالة سرج عليها قطيفة من ديباج . فقال (أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟) .

قال (نعم)

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٨٧ وما بعدها .

قال جبريل (فما وضعت الملائكة السلاح بعد ولما رجعت الآن الا من طلب القوم ان الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير الى بنى قريظة فانى عامد اليهم مزلزل بهم) (رواه البخارى بمعناه عن عائشة) .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا فأذن فى الناس (من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا ببنى قريظة) . (رواه البخارى أيضا) .

وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضوان الله عليه برايته الى بنى قريظة ، وابتدرها الناس . فسار على بن أبى طالب حتى اذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع حتى لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث قال (ولم ؟ أظنك سمعت منهم لى أذى) قال (نعم يا رسول الله) قال (لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا) .

فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال (يا اخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل نقمته ؟) .

قالوا (يا أبا القاسم ما كنت جهولا)

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه بالصورين (مكان) قبل أن يصل الى بنى قريظة فقال (هل مر بكم أحد ؟) قالوا (يا رسول الله قد مر بنا دحية الكلبى على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذلك جبريل بعث الى بنى قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب فى قلوبهم) .

ولما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة نزل على بئر من آبارها بناحية أموالهم يقال لها أنى .

وتلاحق به الناس فأتى رجال منهم من بعد العشاء الآخرة .

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله فى قلوبهم الرعب وقد كان حيى بن اخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حتى رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكعب ابن أسد بما كان عاهده عليه .

... غير منصرف عنهم يناجزهم

قال كعب بن أسد لهم (يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وانى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم) قالوا (ما هى ؟) قال (تتــابع هذا الرجل ونصدقه . فوالله لقد تبين لكم انه لنبى مرسل وانه للذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنــائكم ونســائكم) قالوا (لا نفارق حكم التوراة أبدا . ولا نستبدل به غيره) .

قال فقتل النساء والصبيان ثم نخرج الى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فان نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه . وان نظهر فلعمرى لنجدن النساء والأبناء) قالوا (نقتل هؤلاء المساكين ؟ فما خير العيش بعدهم ؟) قال (فان أبيتم على هذه ، فان الليلة ليلة السبت وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة) قالوا (نفسد سبتنا علينا ؟ ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا الا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ ؟) قال (ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما أى مستقرا على رأى) .

ثم انهم بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابعث الينا أبا لبابة ابن عبد المنذر أخا بنى عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس لنستشيره فى أمرنا (١) .

فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم . فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش (بكى) اليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه فرق لهم .

وقالوا يا أبا لبابة أترى أن تنزل على حكم محمد ؟

قال نعم (٢) وأشار بيده الى حلقه انه الذبح .

قال أبو لبــابة فوالله ما زالت قدماى من مكانهما حتى عــرفت أنى قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٩٠ وما بعدها .

(٢) الرواية هكذا غير متسقة وقد يكون قال لهم « لا » حتى يسوغ مايعتبر خيانة منه وحتى يتفق مع أشارته لهم بانه الذبح . وبخاصــة ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن قد اتخذ فيهم قرارا حتى يعتبر انه افشى سرا والله اعلم بما كان .

يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتبط فى المسجد الى عمود من عمده وقال (لا أبرح من مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وأعاهد الله ان لا آتى قريظة أبدا ولا أرى فى بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا) .

قيل فأنزل الله تعالى فى أبى لبابة (يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون) قال ابن اسحق فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ــ وكان قد استبطأه ــ قال (أما انه لو جاءنى استغفرت له . فأما اذ قد فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه .)

ونزلت توبة أبى لبابة على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سحر وهو فى بيت أم سلمة قالت أم سلمة رضى الله عنها فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من سحر وهو يضحك قالت فقلت (مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟) قال (تيب على أبى لبابة) قالت (أفلا أبشره يا رسول الله ؟) قال (بلى ان شئت) فقامت على باب حجرتها وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب فقالت (يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك) فثار الناس اليه ليطلقوه فقال (لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده) (فلما مر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خارجا الى صلاة الصبح أطلقه) .

قال ابن هشام أقام أبو لبابة مرتبطا بالجذع ست ليال تأتيه امرأته فى كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيربط بالجذع . والآية التى نزلت فى توبته قوله عز وجل (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) (التوبة الآية ١٠٢) .

قال ابن اسحق (١) فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثبت الأوس فقالوا يا رسول الله صلى الله عليك وسلم انهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت فى موالى اخواننا بالأمس ما قد علمت وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بنى قريظة قد حاصر

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ١٩٢ وهذا الحديث حجة فى المذاهب الثمانية فى استنزال المشركين على حكم .

بنى قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه فسأل اياهم عبدالله بن أبى بن سلول فوهبهم له . فلما كلمه الأوس قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم (ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم) قالوا !! بلى (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) فذاك الى سعد بن معاذ (لأن سـعدا كان رأس الأوس يومها) وكان جريحا لاصابته وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل سعد بن معاذ بسبب جرحه فى خيمة لامرأة من (قبيلة) أسلم يقال لها رفيدة فى مسجده . كانت تداوى الجرحى وتحتسب بنفسـها خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال لقومه حين أصابه (أى سعد) السهم بالخندق (اجعلوه فى خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب) .

فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى قريظـة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من أدم (جلد) وكان رجلا جسيما جميلا ، ثم أقبلوا معه الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم وهـم يقولون (يا أبا عمرو أحسن فى مواليك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم انما ولاك ذلك لتحسن فيهم) .

فلما أكثروا عليه قال (لقد آن لسعد أن لا تأخذه فى الله لومة لائم) .

فرجع بعض من كان معه من قومه الى دار بنى عبد الاشهل فنعى لهم رجال بنى قريظة (أخبر بموتهم) قبل أن يصل اليهم سعد عن كلمته أى مستنتجا من كلمته التى سمع منه .

فلما انتهى سعد الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم (قوموا الى سيدكم) فأما المهاجرون فيقولون انما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار . وأما الأنصار فيقولون قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين .

فقاموا اليه .

فقالوا (يا أبا عمرو ان رسـول الله صلى الله عليـه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم) .

فقال سعد بن معاذ (عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ان الحكم فيهم لما حكمت ؟)

قالوا (نعم)

قال (وعلى من ههنا ؟) فى الناحية التى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اجلالا له .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعم)

قال سعد (فانى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء) .

قال ابن اسحق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة ارقعة) (سماوات) .

ثم استنزلوا فحبسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى دار بنت الحرث ؟ امرأة بنى النجار .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سوق المدينة فخندق بها خنادق ثم بعث اليهم فضرب أعناقهم فى تلك الخنادق يخرج بهم اليه ارسالا (طائفة بعد طائفة) .

وفيهم عدو الله حيى بن اخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة أو سبعمائة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة .

وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يذهب بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ارسالا (يا كعب ما تراه يصنع بنا ؟) قال (أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينزع (لايكف) وانه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل) فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اصرار بعض اليهود

وأتى بحيى بن أخطب عدو الله وعليه حلة فقاحية (فى لون الزهر الضارب للحمرة) قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يسلبها مجموعة يداه الى عنقه بحبل .

فلما نظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أما والله ما لمت نفسى على عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل)

ثم أقبل على الناس فقال (يأيها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل) .

ثم جلس فضربت عنقه .

قال وقتلت امرأة واحدة هى التى طرحت الرحا على خلاء بن سـويد فقتلته وقيل كانت امرأة الحسن القرظى .

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت (لم يقتل من نسائهم الا امرأة واحدة . والله انها لعندى تحدث وتضحك ظهرا وبطنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالها فى السوق اذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ؟ قالت أنا والله . قلت لها ويلك مالك ؟ قالت أقتل . قلت ولم ؟ قالت لحدث أحدثته فانطلق بها فضربت عنقها .)

فكانت عائشة تقول (فوالله ما أنسى عجبـا منها طيب نفسـها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل .)

وقد كان ثابت بن قيس من أصحاب رسو لالله صلى الله عليه وسلم قد أتى الزبير بن باطا القرظى (من يهود بنى قريظة) وكان الزبير قد من على ثابت بن قيس فى الجاهلية يوم بعاث (كما قدمنا) فجاءه ثابت وهو شـيخ كبير فقال للزبير (يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى) فقال الزبير (وهل يجهل مثلى مثلك) فقال له ثابت (انى قد أردت أن أجزيك بيدك عندى) ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله انه كانت للزبير على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه) .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو لك) فأتاه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لى دمك فهو لك . فقال الزبير (شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحيـاة) فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله هب لى امرأته وولده .قال : (هم لك)

فأتاه فقال (قد وهب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك) قال (أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك) .

فأتى ثابت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله ماله ، فقال له (هو لك) فأتاه ثابت فقال قد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك فهو لك . قال (أى ثابت) ما فعل الذى كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد قال (قتل) قال فما فعل سيد الحاضر والبادى حيى بن أخطب) قال (قتل) قال فما فعل مقدمتنا اذا شددنا وحاميتنا اذا فررنا تمزال بن سموال قال (قتل) قال (بنو كعب بن قريظة وبنو عمرو بن قريظة قال (ذهبوا وقتلوا) قال (فانى أسألك ياثابت بيدى بحق (بسبيلى ومنتى) عندك الا ألحقتمونى بالقوم . فوالله ما العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر لله فتله ولو ناضح (قليلا) حتى القى الأحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه .

فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبة قال (يلقاهم والله فى نار جهنم خالدا فيها مخلدا) .

الذين أسلموا وأوفوا وعفى عنهم

قال ابن اسحق ثم ان ثعلبة بن سعية واسيد بن سعية واسد بن عبيد وهم نفر من بنى بهدل ليسوا من بنى قريظة ولا النضير نسبهم فوق ذلك هم بنو عم القوم أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخرج فى تلك الليلة عمرو بن سعدى القرظى فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه محمد بن مسلمة تلك الليلة وكان عمرو قد أبى مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (لا أغدر بمحمد أبدا) فقال محمد بن مسلمة حين عرفه (اللهم لا تحرمنى اقالة عثرات الكرام) ثم خلى سبيله .

فخرج على وجهه حتى بات فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة تلك الليلة فلم يدر أين توجه من الأرض الى يومه هذا .

فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم شأنه فقال : (ذاك رجل نجاه الله بوفائه والله أعلم .

وعن عطية القرظى انه قال (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أن يقتل من بنى قريظة كل من أنبت منهم (يعنى نبت الشعر فى عانته) وكنت غلاما فوجدنى لم أنبت فخلوا سبيلى) .

كما أن سلمى بنت قيس وكانت احدى خالات رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلت معه القبلتين وبايعته بيعة النساء سألته رفاعة بن سموال القرظى وكان رجلا قد بلغ فلاذ بها . وكان يعرفهم من قبل ذلك فقالت يا نبى الله بأبى أنت وأمى هب لى رفاعة . فانه زعم أنه سيصلى ويأكل لحم الجمل فوهبه لها فاستحيته (أى حفظت له حياته من القتل يومها) .

وقد نزلت سورة الأحزاب وفيها ذكر الخندق وبنى قريظة وقال الله فيها (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم (حصونهم) وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا .وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا (الآيات ٢٥ وما بعدها) .

مطابقة ما كان من أمر بنى قريظة لحكم الله

مما تقدم يبين أن بنى قريظة بغدرهم قد نقضوا عهدهم وصاروا من الحربيين . فهم قد غدروا بالنبى صلى الله عليه وسلم وساهموا فى القتال مع الأحزاب بعد أن كذبوا عليه وأخبروهم أن الوثنية خير من الاسلام وفسقوا فى العداوة وأصروا عليها .

والاستنزال هو بمكان قبول التحكيم . فهم قد قبلوا حكم من طلبوا النزول على حكمه وهو سعد بن معاذ . وكان سعد رجلا عدلا عاقلا مسلما فهو مستجمع لشروط التحكيم .

وقد اجتمعت المذاهب على أنه يجوز النزول على حكم معد يتفق على استنزاله اذا كان مسلما وكان جامعا لهذه الشروط وقيل ان ذلك ليس نزولا على حكم الله لأن حكم الله فى ذلك لم يعلم . وانما نزل اليهود على حكم النبى صلى الله عليه وسلم وهو عهد الى سعد فيه .

وقيل — ونراه الأصح — ان المسلم لا يحكم الا بما طابق حكم الله فلا ضير له أن يحكم بغيره وأنه قد علم حكم الله من اقرار النبى صلى الله عليه وسلم لما حكم به سعد بن معاذ — وهذا الحكم ما يجوز فى الأسرى بصفة عامة وهو أن تقتل الرجال من المقاتلين وتؤسر النساء وتغتنم الأموال وذلك اذا لم ير الامام منا أو فداء عند من يجيز ذلك (وهم غير الحنفية) أما وقد فوض الامام الأمر الى من استنزله فانه قد فوضه فى هذا الخيار ان شاء انزله وان شاء لم ينزله على أن لا يخرج فيما يحكم به عن أصل ما هو جائز للامام وما هو مقيد به . فلا يحكم الا بالجائز فى الأسرى فلا يجوز أن يخرج الى الحكم باجراء صلح مشروط أو الاذن بتطبيق غير أحكام الاسلام فى بلد الاسلام أو غير ذلك مما لايجوز شرعا .

وقال الامام الكاسانى (1) :

« فان كان الاستنزال على حكم رجل معين فنزلوا على حكمه فحكم عليهم بشىء مما ذكرنا وهو رجل عاقل مسلم عدل غير محدود فى قذف ، جاز بالاجماع لما روى أن بنى قريظة لما حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة استنزلوا على حكم سعد بن معاذ فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتقسم أموالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة فقد استصوب الرسول حكمه ، حيث أخبر عليه الصلاة والسلام أن ما حكم به حكم الله سبحانه وتعالى ، لأن حكمه سبحانه وتعالى لا يكون

(1) وهو من الأئمة الحنفية ـ كتاب بدائع الصنائع الجزء السابع صفحة ١٠٨ ولا خلاف فيه فى المذاهب . انظر المهذب للشيرازى (شافعى الجزء الثانى صفحة ٢٣٨ ومواهب الجليل للحطاب (مالكى) الجزء الثالث صفحة ٣٦٠ والمحرر (حنبل) الجزء الثانى صفحة ١٦٠ والروضة البهية (شيعة امامية) الجزء الاول صفحة ٢٢١ وشرح النيل [؟] اباضية خوارج) الجزء السابع صفحة ٤٢٤ .

الا صوابا ، وليس للحاكم أن يحكم بردهم الى دار الحرب لما بينا ، لأنهم بالرد يصيرون جربيين لنا » .

نتائج غزوة بنى قريظة

قال ولفستون (١) : « ومهما يكن من شىء فلقد قضت هذه الغزوة على بطون اليهود فى يثرب ، وكان القضاء على اليهود هو رائد الأوس والخزرج منذ الساعة الأولى لمجاورتهم فى يثرب ، وقد بذلت فى هذا السبيل جهود عظيمة فى فترات مختلفة ولم توفق ، حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم وأطماعهم السياسية فى وقت كانت خامدة فيه تلك الآمال ، أما المنافقون فقد خفتت أصواتهم بعد يوم قريظة ولم نسمع لهم أعمالا أو أقوالا تناقض ارادة النبى وأصحابه كما كان يفهم من قبل » .

ويرى ولفستون هنا أن الأوس والخزرج ظلوا على حقدهم لليهود لم يغير الاسلام طباعهم وهو أمر لا نراه صحيحا .

فضلا عن أن سياق الحوادث دل على غير ذلك ، لأن الخزرج لم تشترك فى الحكم على بنى قريظة ، وأما الأوس فقد أكثرت الشفاعة فيهم لدى سعد بن معاذ ، ولقد استقل سعد برأيه فيهم حتى اشترط على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن ينفذ حكمه قبل أن ينطق به .

وليس صحيح ما قرره من أن هذه الغزوة قضت على المنافقين ، فان عبد الله بن أبى كما أسلفنا لم يكف من أعماله ، وأنشىء مسجد الضرار بعد هذه الغزوة وتخلف المنافقون فى غزوة مؤتة .

ثم ان اليهود رجعوا الى المدينة بعد أن وضعت العداوة أوزارها وأحسن النبى صلى الله عليه وسلم الى اليهود فى النهاية وصفح عنهم بعد أن كسرت شوكتهم . فقد جاءت أخبار تفيد أن يهودا كانوا بالمدينة بعد ذلك .

---

(١) كتابه السابق الذكر صفحة ١٥٢ ومابعدها .

الفصل التاسع

غزوة خيبر

لم يكن أمام النبى صلى الله عليه وسلم فى « الجزيرة » فى الواقع من الأمر ، من أعداء أقوى من قريش من ناحية واليهود من ناحية أخرى . أما سائر القبائل فهى متفرقة وكان يكفيها أن تعلم أن جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصد اليها حتى تفرق وترتعد ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ونصرت بالرعب على مسيرة شهر » ، صحيح .

وكانت المدينة فى الوسط ما بين مكة جنوبا وتجمعات اليهود فى خيبر وما حولها كفدك ووادى القرى وغيرها شمالا .

وكان من المتعذر على النبى صلى الله عليه وسلم أن يواجه الجبهتين فى آن واحد ، وبخاصة بعد أن مارس خطورة الموقف فى غزوة الخندق لما تحزبت عليه القبائل وغدرت به بنو قريظة ولولا أن من الله عليه ورد هذه القوات دون أن ينالوا منه شيئا لواجه موقفا ليس بالسهل ولا بالمأمون .

ولقد قيل ان النبى صلى الله عليه وسلم بلغ قمة التخطيط الدبلوماسى والعبقرية فى الحديبية وهادنتها رغم معارضة المسلمين ورغم ما أبداه المشركون يومها من المخاشنة . قبلها النبى صلى الله عليه وسلم بسعة صدر لم ير لها الصحابة مبررا . وحتى قبل عليه الصلاة والسلام ألا يجير المستضعفين من المسلمين ولجأ اليه أبو جندل عند توقيع الصلح فلم يجره وكان ذلك غما على المسلمين .

وقال الفقيه ابن شهاب الزهرى وغيره ان الله فتح على المسلمين بصلح الحديبية أكثر مما فتح الله عليهم به من أى غزو آخر بدليل أن النبى صلى

الله عليه وسلم رجع الى مكة عام الفتح بعشرة آلاف ولم تكن عدته من قبل لتزيد على الثلاثة آلاف بحال ، وهذا صحيح .

وعلله بأنه لما هادن قريشا لم يجد العرب حرجا أن يدخلوا الاسلام فان ذلك لا يغيظ قريشا ولا يعتبر تحديا لها ، لأنه لا ينطوى على تهديد عند الحرب .

كما أنه لما وجدت قريش أن الاسلام يمجد الكعبة وانه يتخذها قبلة وانه حريص على الحج والعمرة اطمأنت على أن الاسلام لن يهدد مركزها التجارى والسياسى بل يحتفظ لها بالحجاج والعمار فتعمر أسواقها .

وعلى أية حال ان هو الا وحى يوحى ، عَلّمه شديد القوى ، وكان ذلك من توفيق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

ولما رجع النبى صلى الله عليه وسلم فى ذى الحجة من السنة السادسة من الهجرة من الحديبية قام فورا الى خيبر فى المحرم من السنة السابعة وغزاها .

وقيل : كان من عادة المسلمين أن يوقعوا الرعب فى قلوب أعدائهم قبل الغزوة . ولذلك قيل : أرسل النبى صلى الله عليه وسلم من يقتل سلام بن أبى الحقيق قبل خيبر ليوقع الرعب فى قلوب اليهود ، والله أعلم .

كما أن قريشا كانت تعول على عداوة اليهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموقعهم من خيبر أشد التعويل ، حتى يجدوا الحليف اذا هجموا ، وحتى يظلوا على مناوشتهم ، ولذلك فجعوا فى هزيمتهم أشد الفجيعة ، وكان لذلك أثره عليهم فى هزيمتهم يوم الفتح .

مقتل سلام بن أبى الحقيق

قال ابن اسحاق (١) : ولما انقضى شأن الخندق وأمر بنى قريظة ، استأذنت الخزرج فى قتل سلام بن أبى الحقيق ، وكان ممن حزّب

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٣٦ وما بعدها .

الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأذن لهم . وكانت الأوس قبل أحد قد قتلت كعب بن الأشرف فى عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتحريضه عليه .

وكان هذان الحيان من الأنصار — الأوس والخزرج — يتصاولان (يتباريان) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تصاول الفحلين ، لا تصنع الأوس شيئا فيه عن رسول صلى الله عليه وسلم غناء « منفعـة » الا قالت الخزرج « والله لا تذهبون بهذه فضلا علينا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الاسلام » ، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثلها ، فاذا فعلت الخزرج شيئا قالت الأوس مثل ذلك .

قال : ولما أصابت الأوس كعب بن الأشرف فى عداوته لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت الخزرج : « والله لا تذهبون بها فضلا علينـا أبدا » فتذاكروا « من عدو لرسـول الله صلى الله عليـه وسـلم كعـداوة ابن الأشرف ؟ » فذكروا ابن أبى الحقيق وهو بخيبر .

فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله فأذن لهم .

فخرج اليه من الخزرج من بنى سلمة خمسة نفر : عبد الله بن عتيـك ، ومسعود بن سنان ، وعبد الله بن أنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعى ، وخزاعى بن أسود حليف لهم من قبيلة أسلم فخرجوا وأمر عليهم رسـول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عتيك .

ونهاهم عن أن يقتلوا وليدا أو امرأة .

فخرجوا حتى اذا قدموا خيبر أتوا دار أمين بن أبى الحقيق ليلا . فلم يدعوا بيتا فى الدار الا أغلقوه على أهـله ، أى أن الدار كانت تتضمن بيوتا ولعلها لمزارعين أو لمن يلوذ به من الأهل ونحوهم .

وكان فى علية له (غرفة عالية) اليها عجلة (يعنى يصعد اليها بسـلم هو جذع نخلة تنقر عليه درجات ويصعدون عليه الى الغرف العالية) .

فأسندوا (صعدوا) منها حتى قاموا على بابه .

فاستأذنوا عليه .

فخرجت اليهم امرأته فقالت : « من أنتم ؟ » .

قالوا : « ناس من العرب نلتمس الطعام » .

قالت : « ذاكم صاحبكم فادخلوا عليه » .

قال (١) : « فلما دخلنا عليه أغلقنا عليه وعلينا الحجرة تخوفا أن تكون دونه مجادلة « مناورة » تحول بيننا وبينه .

فصاحت امرأته فنوت بنا (فضحتهم) وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا ، فوالله ما يدلنا عليه فى سواد الليل الا بياضه كأنه قبطية (ثوب مصرى أبيض) ملقاة .

ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكف يده .

ولولا ذلك لفرغنا منها بليل .

فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه فى بطنه حتى أنفذه وهو يقول : « قطنى قطنى » أى حسبى حسبى .

وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلا سيىء البصر فوقع من الدرجة فوثئت (أصيبت) يده أو جله وثئا شديدا ، وحملناه حتى نأتى منهرا (مجرى) للماء من عيونهم فندخل فيه .

فأوقدنا النيران واشتدوا فى كل وجهة يطلبوننا حتى اذا يئسوا رجعوا الى صاحبهم فاكتنفوه « أحاطوا به » وهو يقضى « يموت » بينهم .

فقلنا : كيف لنا أن نعلم أن عدو الله قد مات ؟

فقال لنا رجل منا : « أنا أذهب فأنظر لكم » .

فانطلق حتى وصل فى الناس قال : فوجدت امرأته ورجال يهود حوله وفى يدها مصباح تنظر فى وجهه وتحدثهم وتقول : « أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسى » .

---

(١) لم يذكر ابن هشام القائل وواضح انه احد الجماعة اوقد يكون مسعود بن سنان او ابا قتادة الحرث بن ربعى والاخير لأن له روايات.




قلت : « أنى ابن عتيك بهذه البلاد ؟ » .

ثم أقبلت عليه — على زوجها — تنظر فى وجهه ثم قالت : « فاظ (مات) واله يهود » .

قال : فما سمعت من كلمة كانت ألذ الى نفسى منها . ثم جاءنا فأخبرنا الخبر .

فاحتملنا صاحبنا فقدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بقتل عدو الله ، واختلفنا عنده فى قتله كلنا يدعيه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هاتوا أسيافكم » .

فجئناه بها ، فنظر اليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس : « هذا قتله ، أرى فيه أثر الطعام » .

فتــــح خيبــر

قال ابن اسحاق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم الى يهــود خيبر (أقول وذلك فى أوائل عهده بالمدينة) يسألهم الاسلام (١) .

وقال ابن اسحاق (٢) : أقام رسول الله صلى الله عليــه وسلم بالمدينة حين رجع من الحديبية فى ذى الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقية المحرم الى خيبر ودفع الراية الى على بن أبى طالب رضى الله عنه وكانت بيضاء .

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر قال لأصــحابه : « قفوا » .

---

(١) « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب موسى واخيه والمصدق لما جاء به موسى الا أن الله قد قال لكم يامعشر التوراة وانكم لتجدون ذلك فى كتابكم « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما » وانى أنشدكم بالله وأنشدكم بما انزل عليكم وانشدكم بالذى أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى وانشدكم بالذى أيبس البحر لابائكم حتى انجاكم من آل فرعون وعمله الا أخبرتمــونى هل تجدون فيمــا انزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد فان كنتم لاتجدون ذلك فى كتابكم فلا كره عليكم فقد تبين الرشد من الغى فادعوكم الى الله والى نبيه »

(٢) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٨٣ وما بعدها .

ثم قال : « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، فانا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله » .

قيل : وكان يقولها عليه الصلاة والسلام لكل قرية دخلها .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فان سمع أذانا أمسك ، وان لم يسمع أذانا أغار .

قال أنس بن مالك : فنزلنا خيبر ليلا فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اذا أصبح لم يسمع أذانا فركب وركبنا معه ، فركبت خلف أبى طلحة وان قدمى (أو فخذى) لتمس قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم (أو فخذه) واستقبلنا عمال خيبر غادين (ذاهبين صباحا) قد خرجوا بمساحيهم (فئوسهم) ومكاتلهم (مقاطفهم وزنابيلهم) ، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش قالوا : محمد والخميس (والجيش) معه فأدبروا هربا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الله أكبر خربت خيبر ، انا اذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

(صحيح) .

وكان شعار المسلمين يومها : «يامنصور امت امت » .

وتدنى (أى أخذ الأقرب فالأقرب) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال يأخذها مالا مالا ، ويفتتحها حصنا حصنا .

فكان أول حصونهم افتتح حصن ناعم وقتل محمود بن مسلمة فقد ألقيت عليه منه رحاة فقتلته .

ثم القموص حصن بن أبى الحقيق ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهن صفية بنت حيى بن أخطب وحصن الصعب بن معاذ وكان أغناها وأكثرها خيرا .

روى أن بنى سهم من أسالم أتوا رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، لقد جهدنا وما بأيدينا من شىء ، فلم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا يعطيهم اياه ، فقال : « اللهم انك قد عرفت حالهم وان ليست بهم قوة وان ليس بيدى شىء أعطيهم اياه ، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء وأكثرها طعاما وودكا » . فغدا الناس ففتـح الله عز وجل عليهم حصن الصعب بن معاذ .

ولما كانوا ببعض الحصون خرج مرحب اليهودى وهو من حمير قد جمع سلاحه يرتجز وهو يقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب　　شاكى السـلاح بطل مجرب
أطعن أحيانا وحينـا أضرب　　اذا الليوث أقبلت تحـرب
ان حمـاى للحمى لا يقرب　　يحجم عن صولتى المجـرب

فأجابه كعب بن مالك فقال :

قـد علمت خيبر أنى كعب　　مفرج الغمـا جـرىء صلب
اذا شبت الحرب تلتها الحرب　　معى حسـام كالعقـين عضب
نطؤكم حتى يذل الصـعب　　نعطى الجزاء أو يفىء النهب
بكف ماض ليس فيه عتب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لهذا ؟ » .

قال محمد بن مسلمة : أنا له يارسول الله ، أنا الموتور الثـائر ، قتل أخى بالأمس .

فقال : « فقم اليه ، اللهم أعنه عليه » .

فلما دنا أحدهما من صاحبه دخلت بينهما شجرة عمرية (عتيقة من شجر العشر ، وهو شجر له صمغ) فجعل أحدهما يلوذ بها من صـاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها ، حتى برز كلٌ واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرجل القائم ما فيها فنن (غصن) .

ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة فضربه فاتقـاه بدرقه (الترس) فوقع سيفه فيها ، فعضت به فأمسكته وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله .

وقد أفاض مؤرخو اليهود فى ذكر هذه المبارزة واشادوا ببطـولة مرحب فيها وانها تذكر بمبارزات جبابرة الأبطال فى الملاحم والأساطير .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر ينشـد المبارزة فخرج اليه الزبير بن العوام فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب : يقتل ابنى يارسول الله ؟

قال : « بل ابنك يقتله ان شاء الله » .

فقتله الزبير ، وقيل للزبير : والله ان سيفك كان يومئذ صارما عضبا .

قال : والله ما كان صارما ولكنى أكرهته (أى جعلته كذلك) .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه برايته الى بعض حصون خيبر فقـاتل ، فرجع ولم يك فتح وقد جهـد (ناله التعب) .

ثم بعث الغـد عمر بن الخطاب فقـاتل ثم رجع ولم يك فتح وقد جهد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، ليس بفرار » .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضوان الله عليه وهو أرمد (موجوع العينين) فتفل فى عينه ثم قال : « خذ هذه الراية فامض بهـا حتى يفتح الله عليك » .

قال مسلمة بن الأكوع : فخرج والله بها يأنح (يزحر ويتألم من ثقـل المرض) يهرول هرولة (يمشى دون الجرى) وانا لخلفه نتبع أثره حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن .

قال : أنا على بن أبى طالب .

فاطلع اليه (أطل عليه) يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟

قال : أنا على بن أبى طالب .

قال اليهودى : علوتم (أى سترفعون) وما أنزل على موسى (يعنى أنه يقسم بذلك ان المسلمين سينتصرون) .

فما رجع حتى فتح الله على يديه .

ولما دنا على بن أبى طالب رضى الله عنه من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده فتناول على كرم الله وجهه بابا كان عند الحصن وهو يقاتل حتى فتح الله عليه . ثم ألقاه من يده حين فرغ .

قال رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه .

وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحا الوطيح والسلالم ، وحاصرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة ، حتى اذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم (ينفيهم) وأن يحقن دماءهم ، ففعل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حاز الأموال كلها يعنى الأراضى والحصون الشق ونطاه والكتيبة وجميع حصونهم الا ما كان من ذينك الحصنين .

ولما فرغ النبى صلى الله عليه وسلم من خيبر انصرف الى وادى القرى فحاصر أهلها ليالى .

فلما سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه أن يسيرهم (ينفيهم) وأن يحقن لهم دماءهم ويخلوا له الأموال ، ففعل .

وكان ممن مشى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم فى ذلك محيصة بن مسعود أخو بنى الحارث .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعاملهم فى الأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف على أن اذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . فصالحه أهل فدك على مثل ذلك .

فكانت خيبر فيئا بين المسلمين ، وكانت فدك خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب .

وقع الخبر على قريش

قال ابن اسحاق (١) :

ولما افتتحت خيبر كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجاج بن علاط ، فقال : يارسول الله ان لى بمكة مالا عند صاحبتى (زوجته) أم شيبة بنت أبى طلحة وما لامتفرقا فى تجار أهل مكة ، فأذن لى يا رسول الله ، فأذن له .

قال الحجاج : فخرجت حتى اذا قدمت مكة وجدت بثنية البيضاء (مكان) رجالا من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغهم أنه سار الى خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز (بلدتها الأولى) ريفا ومنعة (حصانة) ورجالا فهم يتحسسون أخبارها ويسألون الركبان .

قال : فلما رأونى ولم يكونوا علموا باسلامى ، قالوا : الحجاج بن علاط عنده والله الخبر ، أخبرنا يا أبا محمد ، فانه قد بلغنا أن القاطع قد سار الى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

قلت: قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر مايسركم ، فالتبطوا (تزاحموا) بجنبى ناقتى يقولون : ايه ياحجاج .

قلت : هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا وقالوا لا نقتله حتى نبعث به الى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : جاءكم الخبر وهذا محمد انما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم .

قلت : أعينونى على جمع مالى بمكة وعلى غرمائى فانى أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فتل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار الى ما هناك . فقاموا فجمعوا لى مالى كأحسن جمع سمعت به .

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٩٩ .

فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى أقبل حتى وقف الى جنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار .

فقال : ياحجاج ، ماهذا الخبر الذى جئت به ؟

فقلت : وهل عندك حفظ لما وضعت عندك (أى تكتم السر اذا قلت لك) .

قال : نعم .

قلت : فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء فانى فى جمع مالى كما ترى فانصرف عنى حتى أفرغ .

قال : حتى اذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة ، وأجمعت الخروج ، لقيت العباس فقلت : احفظ على حديثى يا أبا الفضل ، فانى أخشى الطلب (المطاردة) ثلاثا (ثلاثة أيام) ثم قل ما شئت .

قال : افعل .

قلت : فانى والله تركت ابن أخيك عروسا على بنت ملكهم (يعنى صفية بنت حيى) ولقد افتتح خيبر وانتثل (استخرج) ما فيها وصارت له ولأصحابه .

فقال : ما تقول ياحجاج .

قلت : اى والله فاكتم عنى ، لقد أسلمت ما جئت الا لآخذ مالى فرقا من أن أغلب عليه ، فاذا مضت ثلاث فاظهر أمرك والله على ما تحب .

حتى اذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له وتخلق وتطيب وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : ياأبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة .

قال : كلا والله الذى حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروسا على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه .

قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟

قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلما فأخذ ماله فانطلق به ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه .

قالوا : يالعباد الله ، انفلت عدو الله أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .

ثم لم ينشبوا (يلبثوا) أن جاءهم الخبر بذلك .

الفصل العاشر

سلم واحسان

« وإن عدتم عدنا »

لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وما حولها تمت هزيمة اليهود نهائيا واصبحوا فلولا وحطاما لا قوام لها . بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم يد الاحسان ووضع عنهم سيف النقمة وأوصل بينه وبينهم الأسباب وأغضى عما بدا منهم بين الفينة والأخرى .

والواقع ان هذه السياسة كان لها ما يبررها وقتها فهى تؤدى الى غسل الجراح وتطبيبها وازالة الاحقاد فيبعد احتمال الفتن والاضطرابات .

وهى دلالة الحاكم القوى المتثبت من نظامه الذى يثق بأن أعداءه قد باتوا على خوف من شوكته بعد ان لقنهم دروس الهيبة . فيكون لاحسانه اليهم أجمل الوقع فى نفوسهم ويعيدهم الى جادة الحياة ويقيل عثرتهم .

ولكن ، اذا عادوا الى الافساد ، كان لنا أن نعود الى درئه ورده عليهم، قال الله تعالى : « وان عدتم عدنا » ، واننا لنجد الاقرار بهذا الاحسان من مؤرخى اليهود انفسهم فقد قال ولفستون (١) ان « النبى عامل اليهود بالتسامح بعد خيبر واوصى معاذ بن جبل الا يفتن اليهود عن يهوديتهم . وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين اذ لم يكلفوا الا دفع الجزية وبقوا متمسكين بيهوديتهم » وأحال فى ذلك الى ما نقله عن البلاذرى .

وانا لنجد دلالة احسانه صلى الله عليه وسلم لليهود من أمور شتى منها زواجه بأم المؤمنين السيدة صفية بنت حيى رضى الله عنها وأرضاها واغضاؤه

(١) كتابه السابق صفحة ١٧٧ .

عن امرأة وضعت له السم فى شاة أهدتها اليه ودفعه الدية عن يهود اتهموا فى قتل أحد الأنصار وكتابته لبعض الأسر اليهودية عهودا تميزهم . ولم يجد منه شأن مع اليهود بعد ذلك حتى مات . وكان من آخر ما تكلم به قبل موته وصيته بأهل الذمة فقال :

« احفظونى فى ذمتى » .

ولقد قيل ان احسانه لليهود كان نتيجة لزواجه من أم المؤمنين صفية بنت حيى وروج مؤرخو اليهود لذلك ولكن الواقع ان زواجه منها كان جزءا من احسانه الى بنى جنسها .

فان صفية لم تكن الأثيرة الأولى عنده صلى الله عليه وسلم ولم يكن لها عليه تأثير واضح حتى تتعدل سياسته بسببها .

بل ظلت عائشة رضى الله عنها أحب نسائه حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى .

وانما تطلب الوقت بعد طول الحرب وقد تم له النصر عليهم وزالت شوكتهم وقتل ابطالهم ومعانيدهم وتجردوا من اموالهم ونزحت بطون منهم خارج الجزيرة وتطهرت المدينة منهم أن يسكن جراحهم ويمسح على أحزانهم ويعيد بذلك بناء الصدع ويجبر الكسر وان كان صلى الله عليه وسلم قد رأى الا يقوم دينان فى الجزيرة فانهم ما داموا فقد وجب ان يقيموا على سلام ووئام فذلك شعار الاسلام .

ولم تكن هذه سياسته صلى الله عليه وسلم مع يهود وحدهم حتى يزعموا أنها لأجل صفية بل كان ذلك أمره مع قريش وغيرهم لما دنوا لهم وجنحوا الى السلم وكذلك أمر الله اليه(فى الأنفال الآية ٦١) .

ونجد أن فى سورة المائدة . وهى من أواخر ما نزل من القرآن ـ توثيقا للصلات بين المسلمين وأهل الكتاب ومنهم اليهود ـ ما داموا غير ناقضين للعهد فى قوله تعالى : (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) . (الآية ٥) وفيها يوصيه صلى الله عليه

وسلم بالعفو والصفح عن بنى اسرائيل مع ما هم عليه من سيئة فى قوله : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين) .
(الآية ١٣) .

زواجه صلى الله عليه وسلم من ام المؤمنين صفية

قال ابن اسحق ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم القموص حصن بنى ابى الحقيق ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية ابنة حيى ابن أخطب ، وبأخرى معها وكانت من السبايا وبنتى عم لها ، فاصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه وكان دحية بن خليفة الكلبى قد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية فلما اصطفاها لنفسه اعطاه ابنتى عمها وفشت السبايا فى المسلمين وأوصاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الا يأتوا الحبالى من السبايا حتى يستبرئوهن وقال : « لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره . أو كماقال :

ولما اتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية والتى معها مر بهما بلال وهو الذى جاء بهما على قتلى من قتلى يهود . فلما رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية فحيزت خلفه والقى عليها رداءه فعرف المسلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال حين رأى ما بتلك اليهودية « أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما » .

وكانت صفية قد رأت فى المنام ــ وهى عروس بكنانة بن الربيع بن ابى الحقيق ان قمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها فقال : (ما هذا الا انك تحنين لملك الحجاز محمد) .

فلطم وجهها لطمة خضر عينها منها .

فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منه فسألها ما هو فأخبرته هذا الخبر .

ولما اعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية بخيبر أو ببعض الطريق ، كانت التي جملتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك . فبات بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبة له . وبات أبو أيوب خالد بن زيد أخو بنى النجار متوشحا سيفه يحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطوف بالقبة حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأى مكانه قال : (مالك يا أبا أيوب ؟) قال : (يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت اباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك) فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى) قيل وتلك الليلة هى التى فاته فى صباحها صلاة الصبح .

فعن سعيد بن المسيب قال : انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر ، فكان ببعض الطريق ، قال من آخر الليل : « من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام » ؟

قال بلال : أنا يارسول الله أحفظه عليك .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الناس فناموا ، وقام بلال يصلى ، فصلى ما شاء الله عز وجل أن يصلى ، ثم استند الى بعير واستقبل الفجر يرقمه فغلبته عينه فنام ، فلم يوقظهم الا مس الشمس ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أصحابه هب . فقال : « ماذا صنعت بنا يابلال ؟ » .

قال : يارسول الله ، أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك .

قال عليه الصلاة والسلام : « صدقت » .

ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بالناس ، فلما سلم أقبل على الناس فقال : « اذا نسيتم الصلاة فصلوها اذا ذكرتموها ، فان الله تبارك وتعالى يقول : . وأقم الصلاة لذكرى » .

وقد أخلصت صفية رضى الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بكته فى مرضه الذى مات فيه وتمنت أن ما به كان بها حبا له واشفاقا عليه .

عفوه صلى الله عليه وسلم عن يهودية وضعت له السم

قال ابن اسحاق (١) : لما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم (فى مقامه عندما رجع من خيبر الى المدينة) أهدت له زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم ، شاة مصلية (مشوية) وقد سألت أى عضو من الشاة أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل لها : الذراع . فأكثرت فيها السم . ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها (يبلعها) ومعه بشر بن البراء بن معرور وقد أخذ منها كما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ، ثم قال : « ان هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم » ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » .

قالت : بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت : ان كان ملكا استرحت منه ، وان كان نبيا فسيخبر .

فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات بشر من أكلته التى أكل .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال فى مرضه الذى توفى فيه ، وقد دخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده : « يا أم بشر ، ان

---

(١) سيرة ابن هشام المجلد الثالث صفحة ٢٩٣ .

هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهرى (شريان بالقلب) من الأكلة التى آكلت مع أخيك بخيبر » .

قال : فان المسلمين ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا مع ماأكرمه الله به من النبوة .أقول وقد قيل فىتفسير « أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (سورة آل عمران الآية ١٤٤) انها انصرفت الى أنه مات من مرضه الذى مات فيه ، والى أنه قتل شهيدا من السم الذى دس فى الشاة المسمومة .

عفوه صلى الله عليه وسلم عمن سـحره

روى البخارى فى باب : هل يعفى عن الذمى اذا سحر ؟ .. قـال ابن وهب : أخبرنى يونس عن ابن شهاب ، سئل : أعلى من سحر من أهل العهد قتل ؟ قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنع له ذلك ، فلم يقتل من صنعه ، وكان من أهل الكتاب .

وعن عائشة أن النبى سحر حتى كان يخيل اليه أنه صنع شـيئا ولم يصنعه . وقد قدمنا أن من سحره هو لبيد بن الأعصم وهو من اليهود .

موقفه من تهمة اليهودفى قتيل :

قال ابن اسحاق (١) : أصيب عبد الله بن سهل بخيبر ، وكان خرج اليها فى أصحاب له يمتار منهم تمرا ، فوجد فى عين قد كسرت عنقـه ثم طرح فيها فأخذوه فغيبوه (دفنوه) ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له شأنه ، فتقدم اليه أخوه عبد الرحمن ومعه ابنـا عمـه حويصة ومحيصة ابنا مسعود ، فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسـلم قتل صاحبهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتسمون قاتلكم (تعينوه) ثم تحلفون عليه خمسين يمينا فنسلمه اليكم » .

---

(١) سيرة بن هشام المجلد الثالث صفحة ٣٠٨ .

قالوا : يارسول الله ، ما كنا لنحلف على ما لا نعلم .

قال : « أفيحلفون بالله لكم خمسين يمينا ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا ثم يبرءون من دمه » .

قالوا : يارسول الله ، ماكنا لنقبل أيمان يهود على مافيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا على اثم .

أقول : وهذه هي القسامة وهي من طرق الاثبات شرعا .

قال ابن اسحاق فوداه (دفع ديته) رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده (من ماله) مائة ناقة .

وجاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى يهود خيبر حين كلمته الأنصار : « انه قد وجد قتيل بين أبياتكم فدوه (ادفعوا ديته) فكتبوا اليه يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلا . فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده .

أقول : وقد وقع في المسلمين أن اليهود هم قتلته اذ قال عمر بن الخطاب عند اجلائهم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله : لانشك أنهم أصحابه ليس لنا عدو غيرهم .

كتابته صلى الله عليه وسلم لبعض اليهود

وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم كتب لبعض اليهود عهودا ننقل ما وصل لنا منها [1]

---

(1) من كتاب ولفنستون لتاريخ اليهود فى الجاهلية وصدر الاسلام . صفحة ١٨٠ وبطبيعة الحال هو ليس حجة فى النقل عن نبى الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى غادية ان لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عدى ولا جلاء الليل مد والنهار شد = .

اجلاء عمر بن الخطاب لليهود :

كانت أموال خيبر وأراضيهم ذات قيمة وخصب ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقوم اليهود على زراعتها لخبرتهم ، فأذن لهم فى الاقامة يؤدون له نصف ثمارها وحاصلاتها على أن يكون له حق اخراجهم كما أسلفنا .

قال ابن اسحاق ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خَمَّسَ أرض خيبر بعد القتال وقسمها بين المسلمين ونزل من أهلها على الجلاء بعد القتال ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ان شئتم دفعت اليكم هذه الأموال على أن تعلموها وتكون عمارها بيننا وبينكم وأقركم ما أقركم الله » . فقبلوا .

فكانوا على ذلك يعطونها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل بينهم فى الخرص (التقسيم) .

فلما توفى الله نبيه صلى الله عليه وسلم أقرها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيديهم على المعاملة التى عاملهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى توفى .

ـ كتابه لبنى حبيبة (حنينة) واهل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله الى بنى حبيبة (حنينة) واهل مقنا : سلم انتم • فانه انزل على انكم راجعون الى قريتكم •

فاذا جاء كتابى هذا ، فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله • وان رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به • لاشريك لكم فى قريتكم الا رسول الله يجيركم كما يجير منه نفسه • فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة الا ماعفا رسول الله ، او رسول رسول الله ، وان لكم من ذلك ماأخرجت نخيلكم وربع ماصادت عرككم (أخشاب الصيد) وربع ما اغتزلت نساؤكم ، وانكم قد ثريتم بعد ذلك ، ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة • ان سمعتم واطعتم يكرم كريمكم ويعفوا عن مسيئكم • ومن أئتمر من بنى حبيبة (حنينة) واهل مقنا من المسلمين فهو خير له • ومن اطلعهم بشر فهو شر له • وليس عليكم امير الا من انفسكم او من اهل بيت رسول الله • »

(ويقول انه رآها مع بعض اهل مصر بيتها وهى من جلد احمر دارس الخط •)

ـ معاهدة اهل خيبر وآل مقنا :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد رسول الله لحنينة ، ولأهل خيبر وآل مقنا وذراريهم مادامت السموات والارض سلام انتم • انى احمد اليكم الله الذى لا اله الا هو = •

ثم أقرها عمر رضى الله عنه صدرا من خلافته ؟

ثم بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى وجعه (مرضه) الذى قبضه الله فيه : « لايجتمعن بجزيرة العرب دينان » .

فبحث عمر عن ذلك حتى بلغته الثبت (صحة السند) .

وقد روى البخارى عن ابن عباس قال : اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه فقال : « ائتونى بكتف أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده أبدا » .. فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع .

فقالوا : ما له أهجر ؟ استفهموه .

فقال : « ذرونى ، والذى أنا فيه خير مما تدعونى اليه » .

فأمرهم بثلاث : قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ، والثالثة اما ان سكت عنها واما أن قالها فنسيتها .

= اما بعد ، فانزل الوحى انكم راجعون الى قراكم وسكنى داركم ... ودونكم اموالكم ورقيتكم ، وكل ماملكت ايمالكم . وليس عليكم اداء جزية . ولا تجز لكم ناحية . ولا توطا ارضكم . ولا تجسدون . ولا تصلمون . ولا يجعل احد عليكم . ولا تمنعون من لبس المشققات والملونات ، ولا من ركوب الخيل ولبس اصناف السلاح . ومن قاتلكم فقاتلوه . ومن قتل فى حربكم فلا يفاديه أحد منكم ولا له دية . ومن قتل منكم احد المسلمين تعمدا فحكمه حكم المسلمين ولا يعتدى عليه بالفحشاء . ولا تنزلونه بمنزلة أهل الذمة . وان استعنتم فتعاونوا . وان استرفدتم ترفدون . ولا تطالبون ببيضاء ولا بصفراء ولا بسمراء ولا كراع ولا حلقة ... ولا تمنعون دخول المساجد . ولا تحجبون عن ولاة المسلمين . ولا يولى عليكم الا منكم او من أهل بيت رسول الله .. وتكرمون لكرامتكم وكرامة صفية ابنة عمكم . وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين ان يكرموا كريمكم ، ويتقوا عن مسيئكم . ومن سافر منكم فهو فى أمان الله وامان رسوله . ولا اكراه فى الدين . ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته ، كان له ربع ما امر به رسول الله لاهل بيته تعطون عطاء قريش ، وهو خمسون دينارا ، ذلك بفضل منى عليكم . وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما فى هذا الكتاب . فمن اطلع الى حنينة وأهل خيبر وملتا فهو خير له .

ومن اطلع لهم بشر فهو شر له . ومن قرا كتابى هذا او قرىء عليه وغير او خالف شيئا مما به فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين من الملائكة والناس اجمعين ، وهو برىء من ذمتى وشفاعتى يوم القيامة . وانا كاظيه . ومن كاظمنى فقد كاظمته فهو فى النار ، وكفى بالله شهيدا وبملائكته وبمن حضر من المسلمين . »

(كتبها على بن أبى طالب بخطه وأملى عليه رسول الله حرفا بحرف يوم الجمعة للثلاث الاول خلت من رمضان سنة ٥ مضت من الهجرة) . =

فأرسل عمر الى يهود فقال : « ان الله عز وجل قد أذن فى جلائكم ، فقد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يجتمع بجزيرة العرب دينان ، فمن كان عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليأتنى به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود فليتجهز للجلاء » .

فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

وكانت اليهود قد اعتدت على عبد الله بن عمر بن الخطاب ، قال عبد الله :

« خرجت أنا والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود الى أموالنا بخيبر نتعاهدها ، فلما قدمنا تفرقنا فى أموالنا فعدا على تحت الليل وأنا نائم على فراشى فقدم صاحباى فأتيانى فسألانى : من صنع بك هذا ؟ فقلت : لا أدرى . قال : فأصلحا من يدى ثم قدما بى على عمر رضى الله عنه ، فقال : هذا عمل يهود . ثم قام فى الناس خطيبا فقال : يا أيها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم اذا شئنا وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع عدوهم على الأنصارى قبله : لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فانى مخرج يهود » .

فأخرجهم .

= وقد تشكك ولفستون نفسه (المرجع السابق صفحة ١٨١ فى هذا الكتاب الاخير . واستدل فى تشككه بانه مؤرخ سنة ٥ هجرية فى وقت كان النزاع فيه مازال مستحكما بين النبى صلى الله عليه وسلم واليهود وكانت غزوة خيبر فى سنة ٧ هجرية ، وان المسلمين لم يكونوا يؤرخون بالهجرة أيام الرسول صلى الله عليه وسلم وانه لو وجد هذا الكتاب لما أمر عمر بن الخطاب باجلاء أهل خيبر .

* والواقع اننى لم اجد هذه الكتب فى موضع مما بحثت فيه غير كتاب ولفستون المذكور كما أن صيغته لاتشبه كتب النبى صلى الله عليه وسلم .

خاتمة

وبعد فهذه هى قصة النبى صلى الله عليه وسلم مع اليهود وصفحة فى عنادهم معه وجهاده فيهم وسياسته نحوهم .

ثم ان بنى اسرائيل وغيرهم من اليهود ناوؤا الاسلام بعد ذلك فى صور شتى ومواقف عديدة ليس المجال لتفصيلها الى أن أقاموا اسرائيل يصوبون منها نبالهم الى صدور العرب والمسلمين ويحيكون فيها دسائسهم ويتربصون فيها الدوائر بنا .

وحكم الاسلام فيمن يعايشنا منهم أنهم أهل ذمة أما اسرائيل فهى فى حرب معنا . وأنه لا يجوز ولا يحل عند الله ورسوله أن أرض الاسلام يستعمرها غير المسلمين ليجروا فيها أحكامهم فينصبون فيها حكومة منهم وتظل فيها أحكام غير الاسلام ويخضع فيها قلة من المسلمين لذلك . ولا يجوز أن تجرى معاهدة أو أمان على ذلك بل تعتبر الحرب قائمة حتما بين المسلمين وبين من استولوا على دار الاسلام عنوة وبدلوا أحكامها حتى يستروها لا نعلم فى ذلك خلافا بين المسلمين فيه .

وقال الامام الشافعى وغيره اذا أغار غير المسلمين على المسلمين لم يملكوا عليهم ، لأن أموال المسلمين ونفوسهم معصومة بما قضى به الدين ، فلا يبدله غير المسلمين بعدوانهم .

ومن غريب الزعم الذى يدعون به لانفسهم أن القرآن قد بشر بمولد دولتهم وأمر لهم بتلك الأرض ووعدها اياهم .

ومن أهم مايستندون اليه فى ذلك قوله تعالى فى سورة المائدة اذ قال موسى لقومه « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » «الآيتين

٢٠ ، ٢١ » والآية لاتحتمل الا أنهـا كتبت لكم فى ذلكَ الوقت فزعموا أنهـا تكون مكتوبة لهم ووقف عليهم وقد نزلت بعد ذلك شرائع الدين حتى كان الاسلام ففتحها المسلمون وملكوا بعض أراضيها عنوة وبعضها الآخر صلحا بعد الحصار والقتال .

ولم يروا فى كل ذلك ما يؤثر فى دعواهم وهـذا من قبيل ظنهم أنهـم سيغفر لهم مهما يفعلون .

وقد قال الله تعالى « ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » .

وهذه الأرض لم تكن لهم من الأبد بل كانت لغيرهم ثم وعدهم الله اياها ان أطاعوا واتبعوا حكم الله فلما عصوا حرمهم منها وتاهوا فى الأرض أربعين سنة . ولما تابوا الى الله هداهم اليها . ثم زالت عنهم بما توارد عليها من الأمم فتحوها فاتحا بعد فاتح حتى فتحها المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه وظلت لهم حتى الآن . ولما شرعوا فى استيطانها خلال هذا القرن . لم يعترف العرب باستقرارهم فيها وهم فى حرب معهم على ذلك .

ولذلك فا نمعنى قوله تعالى « الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » أى فى ذلك الوقت . وانما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ومما يستندون اليه كذلك قوله تعالى :

« وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ، فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شـديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . (الاسراء الآية ٤ وما بعدها) .

وبالرجوع الى التفاسير المختلفة (١) فى شأن هذه الآيات الكريمة يتبين لنا أنها مليئة بالقصص المشوهة وواضح فيها أثر الاسرائيليات ولا تقوم على

(١) أنظر بصفة خاصة بن جرير الطبرى الجزء الخامس عشر والفخر الرازى الجزء الخامس وابن كثير الجزء الثالث والنسفى الجزء الثانى .

فكرة ثابتة مؤكدة مقنعة مما يجعلنا نقول ان المفسرين لم يصلوا الى معناها الحقيقى ولم يقربوه .

ولنا أن نلاحظ أولا أن الخطاب فيها لبنى اسرائيل أى الى تلك السلالة الخالصة التى وجدت فى عهد موسى عليه الصلاة والسلام وكان لها كيانها فى عهد نزول القرآن ولم يوجه الى اليهود على اطلاقهم ومن المعلوم أن سكان اسرائيل الآن ليسوا بنى اسرائيل بل امتلأت من اليهود من مختلف الأصول والأجناس مما يجعلنا نرجح أن هذه الآيات الكريمة لم تنصرف الى تجمعات اليهود الكائنة الآن فى الشرق الأوسط والتى لا يمكن أن يصدق عليها وصف بنى اسرائيل .

وجماع ما ورد فى تفسير هذه الآيات أن قوله تعالى « وقضينا الى بنى اسرائيل » أى أخبرناهم وأعلمناهم قاله الطبرى والفخر الرازى وغيرهما وقال القرطبى وغيره حكمنا عليهم أو أوحينا اليهم .

وقوله تعالى لتفسدن « بضم التاء وكسر السين » قال القرطبى فيها قراءات منها بضم التاء وفتح السين ومنها بفتح السين ومنها بفتح التاء وضم السين فيكون هم محل الفساد لا الافساد وفى قوله «ولتعلن علوا كبيرا » اتفقت الآراء أى يتكبرون ويبغون ويطغون ويعتدون وفى قوله تعالى «فجاسوا خلال الديار » قال القرطبى قرئت كذلك فحاسوا والحوس والجوس بمعنى واحد وهو الطواف بالليل . وقوله « رددنا لكم الكرة » اتفق على أنه أعيد لهم صلاح حالهم . بعد الفساد الأول قيل بقتل جالوت وقيل بغيره .

وقوله « وان أسأتم فلها » قال القرطبى أيضا أى ترجع اليها الاساءة أو فلها رب يغفر الاساءة والأول أرجح وأكثر ملاءمة للمقام . وقوله «ليسوءوا وجوهكم» اتفق الرأى على أن ذلك يكون بالسبى والقتل عند الهزيمة « وليتبروا » أى يهدموا وقوله « عسى ربكم أن يرحمكم » قال القرطبى ان عسى من الله واجبة أى أن ربكم سيرحمكم .

وقال المفسرون ان هذه الآيات تحدث عن فساد يقع من بنى اسرائيل مرتين فيسلط عليهم عباد لله ينكلون بهم . وقال ابن كثير « اختلف المفسرون

فى هؤلاء المسلطين عليهم فعن ابن عباس وقتادة أنهم جالوت الجزرى (البقرة الآيات ٢٤٦ وما بعدها) سلطه الله عليهم أولا ثم ظهروا عليه بعد ذلك وقتل داود جالوت . وعن سعيد بن جبير انه ملك الموصل سنحاريب وجنوده وغيره بختنصر ملك بابل قال وروى ابن جرير (أى الطبرى) فى هذا المكان حديثا أسنده الى حذيفة مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم مطولا وهو حديث موضوع لامحالة لايسترىب فى ذلك من له أدنى معرفة بالحديث وقال المزى موضوع مكذوب وقد وردت فى هذا اثارة كثيرة اسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها لان منها ما هو موضوع وضع زنادقة ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحا ونحن فى غنى عنها » .

وقال الفخر الرازى « اختلف فى هؤلاء العباد قيل ان بنى اسرائيل تعظموا وتكبروا واستحلوا المحارم وقتلوا الأنبياء وسفكوا الدماء وذلك أول الفساد فسلط الله عليهم بختنصر الى أن قيض الله ملكا آخر غزا أهل بابل واتفق أن تزوج امرأة من بنى اسرائيل فطلبت تلك المرأة من ذلك الملك أن يرد بنى اسرائيل الى بيت المقدس ففعل ثم قامت الانبياء فيهم ورجعوا الى أحسن ماكانوا فهو قوله تعالى « رددنا لكم الكرة » والقول الثانى « سلط عليهم جالوت حتى أهلكهم وأبادهم ثم قوى طالوت حتى نصر داود فذاك هو عود الكرة » .

وقال القرطبى ان المرة الأولى بعث اليهم أهل بابل وعليهم بختنصر حتى كذبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه أو أرسل عليهم جالوت فى قول قتادة وقيل بقتل زكريا وشعيا عليهما السلام فى الشجرة ، ولما طاردوه فتحت شجرة فدخلها وبقى طرف ثوبه بارزها فأتوا بمنشار وقطعوا الشجرة وهو فيها . وقال ان المرة الثانية فى قوله (فاذا جاء وعد الآخرة) انما قتل يحيى عليه السلام وروى روايات كثيرة خلاصتها ومجموعها أنه كان عليه السلام فى عهد ملك اسرائيلى اسمه هردوس أولاخت وكان يكرمه ويستشيره فاستشاره الملك فى أن يتزوج بنت امرأة له فنهاه وقال لاتحل لك وقيل كانت المرأة أخته وليست زوجته وقيل كانتا بغيين فحقدت عليه المرأة وألبست ابنتها ثيابا حراء رقاقا وطيبتها وأرسلتها الى الملك وهو على شرابه وأمرتها أن

تتعرض له وانه اذا أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله فاذا أجاب سألته رأس يحيى بن زكريا عليه السلام فى طست من ذهب وقيل كانت الملوك اذا تكلمت بشيء على رؤوس الأشهاد ثم لم تمضه نزعت من ملكها فجعل يرجح بين قتله يحيى أو خروجه من ملكه حتى اختار ملكه فقتله (ونذكر أن برنارد شو أخرج هذه الفكرة فى روايته سالومى على ماهو معروف) .

هذه هى الروايات المتعددة . ونضرب صفحا عن الخرافات التى سيقت فى ذلك حول بختنصر وأن الله مسخه مرة ثورا فى البهائم ومرة نسرا فى الطيور ومرة أسدا فى السباع وغير ذلك من القصص الطوال أو ما قيل من أن دم يحيى صار يغلى ويفور حتى بلغ القمم وأعالى الأسوار .. وانه لم يهدأ حتى ذبح عليه سبعين الف قتيل ..

ونلاحظ على هذه الروايات جملة أنها اتفقت على أنه « فاذا جاء وعد الآخرة » ليست ظرفا مستقبلا ولا حادثا لم يكن قد وقع بل جعلتها أخبارا عن حادث كان قد وقع قبل نزول القرآن بمثابة قوله « فلما جاء وعد الآخرة » أى المرة الثانية فهى متفقة على أنها تشير الى حوادث كانت قبل الاسلام .

ومجمل ما تدل عليه وقائعهم أنهم تعودوا الافساد ، فلما قتلوا بعض أنبيائهم سلط الله عليهم من يذيقهم العذاب .

هذه هى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى اسرائيل .

نراه فيها كأعظم مايكون عليه الامام المجرب الحصيف ، والقائد القوى السديد ، والسياسى المحنك البعيد النظر .

وقد عانى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أشد العناء من نفاقهم وزيغهم عن الحق والباسهم الحق بالباطل باسم جدل العلم وتبادل الحجة ، ومن غدرهم ونكثهم وخلفهم ، فلم يتورعوا عن أن يحاربوه بمختلف الأسلحة وأن يشرعوا فى وجهه كل باطل ومنكر ، حتى السحر والكهانة ودس السم ، كل ذلك تعرض له النبى عليه صلوات الله وسلامه ، من شعب كان حربا على كل الأنبياء ونصبا وازهاقا للحق وبابا للفتنة والزيغ فى كل زمان ومكان .

فقابل النبى صلى الله عليه وسلم كل ذلك بما يحسمه .

فأما جدل العلم ، فقد حسمه وأجهز عليه ، اجهاز الحق للباطل وقذف أباطيلهم بحقه فدمغه وأسكته .

وأما نفاقهم فقد قابله رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوحه وصراحة مواقفه وحزمه فأبلسهم وأحرج نفاقهم وزيفهم .

وأما الفتنة والغدر والدسيسة وتحدى السلاح ، فقـد قابله بمثله حتى حطمهم وقصف أشواكهم وأوقعهم فى ذل الهزيمة ، ثم مسح بيده الكريمةعلى جراحهم لما استسلموا وعجزوا عن مكرهم .

وما ذلك الا لخلق فيهم .

لحبهم الدنيا وتعاليهم وتكبرهم بغير الحق ونكثهم وعودهم واستعمالهم سلاح العلم فى الباطل .

فما من نبى أو مصلح يأمر بالقسط من الناس جاءهم الا اضطهدوه وان استطاعوا قتلوه .

فقد تعودوا الافساد كلما جاءهم من يهديهم نبذوا اليه أو قتلوه فيسلط الله عليهم من ينكل بهم ولا يرتدعون وباءوا بغضب من الله وكره من الناس .

فقد روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تقاتلون اليهود حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله » وفى معناه عن أبى هريرة .

وليس هذا قانون بنى اسرائيل بل قانون البشر جميعا وانما ضرب الله بهم مثلا لما ظهر منهم وكأين من أمة جاءها منذروها فأعرضوا عنهم وفسـد أمرها وأتت ماكان من بنى اسرائيل لا تأمن غضب الله .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لنفسى وللمسلمين من شرور أنفسنا ونتوب اليه ونرجو حسن الخواتم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المــراجع

١ ـ تفسير القرآن الجليل للنسفي ـ المطبعة الاميرية سنة ١٩٤٣

٢ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ـ طبعة عيسى البابي الحلبي

٣ ـ مفاتيح الغيب المشهور بالتفسير الكبير للفخر الرازي ج ٥ المطبعة الخيرية بالجمالية بمصر ١٣٠٨ هـ

٤ ـ جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ج ١٥ ـ الطبعة الاولى بالمطبعة الاميرية ١٣٢٨ هـ

٥ ـ صحيح البخاري (المتن وفتح الباري شرح الامام بن حجر طبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٩٥٩)

٦ ـ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد كتاب التحرير القاهرة ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣)

٧ ـ السيرة النبوية لابن كثير ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٩٦٤ م

٨ ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للامام الكاساني ج ٧ مطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٨ ـ ١٩١٠

٩ ـ الام للامام الشافعي الجزء الرابع (مكتبة الكليات الازهرية بالقاهرة ١٩٦١)

١٠ ـ المهذب في فقه الامام الشافعي للشيرازي ـ الجزء الثاني ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي

١١ ـ الكامل في التاريخ لابن الاثير ـ الجزء الاول ـ المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ

١٢ ـ حياة محمد ـ لمحمد حسين هيكل (طبعات مختلفة بدار الكتب المصرية)

١٣ ـ تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ـ لاسرائيل ولفنسون (ابن ذئيب) لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩١٤ .

١٤ ـ الموسوعه الاسلامية : The encyclopeadia of Islam (arnold, Basset and Hartmann Leyden, London 1913)

١٥ ـ الشريعة الاسلامية والقانون الدولي العام ـ علي علي منصور . المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٩٦٥ ومراجع اخرى مشار اليها في مواضعها .

فهرس الكتاب


مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
مطابع شركة الاعلانات الشرقية